

العقل والفلسفة

من منظور الإسلام

عثمان نوري طوباش



دار الأرقم



اسطنبول ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م
اسم الكتاب باللغة التركية: İslam Nazarında Akıl ve Felsefe
الترجمة للعربية: محمد عز الدين سيف
مراجعةو تصحيح وتدقيق: محمد أوقومش.
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
ISBN:٩٧٨٩٩٤٤٨٣٧٦٠٦
Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

العقل و الفلسفة

من منظور الإسلام

عثمان نوري طوبّاش



يقول الله ﷻ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

[محمد: ٢٤]

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]



يقول رسول الله ﷺ:

«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»

[الترمذي، القيامة، ٥٢/ ٢٤٥٩]



يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«من أراد العلم فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين» [الهيثمي، جـ٧، ٧٦١؛ البيهقي، شعب، جـ٢، ٣٣١]

يقول الشعبي رحمه الله:

«والله لئن أخذتم بالمقاييس، لتحرمنَّ الحلال، ولتحلنَّ الحرام» [الديلمي، مقدمة، ٢٢/١٩٨]



يقول ابن سيرين رحمه الله:

«أول من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس» [الديلمي، مقدمة، ٢٢/١٩٦]



يقول جلال الدين الرومي رحمه الله:

«أي أُخَي، عليك أن تحيا بالتفكر... فإن كان تفكرك وردة (أي في إطار القرآن والسنة) فإنك في بستان من الورود، وإن كان تفكرك شوكة (أي في إطار النفسانيات) فإنك حطب لنار موقودة!»

«إنني عبدٌ لما جاء في القرآن وسالكٌ درب محمد المصطفى ﷺ، ما دام الروح محبوسًا في هذا البدن... ومن نقل عنِّي غير هذا فأنا بريء منه ومن قوله...»

مُقَدِّمَة

الحمد لله سبحانه وتعالى الذي خلقنا من عدم، ووضعنا بين مخلوقاته في القمم، وأكرمنا بما لا يحصى من النعم، وجعل على رأسها الإسلام والإيمان والقرآن، منبع الأخلاق والقيم.

والصلاة والسلام على الأنبياء كلهم، لا سيما خاتمهم، نبي آخر الزمان محمد ﷺ وعلى آله وآصحابه أجمعين؛ فهم الذين أخرجوا البشرية من ظلام الجهل والضلال، وانطلقوا بهم إلى السعادة الأبدية في دار القرار.

لقد خلق ربنا ﷻ الإنسانَ في أحسن تقويم دليلًا من دلائل عظمته وقدرته، ووهبه العقلَ والقلب والإدراك والوجدان، كي يعيَ حقيقة كون الدنيا دار امتحان، ويحظى في دار المقام بالسعادة والجنان. ولأن تلك الأمور الموهوبة «لازمة» في إدراك الحقيقة إدراكًا صحيحًا، لكنها لحكمة ما «غير كافية»، أرسل المولى ﷻ الأنبياءَ ونزَّل الكتب السماوية كي تُتمِّم هذه النِعم والألطاف.



وقد جعل ربنا الذي وسِعت رحمته كل شي أوَّلَ البشر أول الأنبياء، كي لا يُحرَم أحد من هذا اللطف الربَّاني.

وجاءت الأوامر والنواهي الإلهية- في جانبها العملي المتعلق بالحياة الاجتماعية- متوافقة مع تطور الحياة البشرية عبر العصور، في حين كانت الأسس الإيمانية والعقائدية ثابتة لا تتغير مذ بداية الخلق.

وختم المولى ﷻ رسالاته السماوية بالقرآن الكريم الذي يلبِّي احتياجات البشر كل حين، فكان هذا اللطف الرباني معجزة دالة على استمرار رحمته ﷻ بعباده حتى قيام الساعة.

وقد اختار الله ﷻ الإنسَ والجنَّ من بين المخلوقات كلها، واخضعهم لامتحان إلهي كي يميز الخبيث من الطيب، لهذا وضع فيهم مزايا فطرية تدفعهم إلى الخير والشر. وخلق العوالم الأخرى كي ييسِّر لهذَين الجنسَين إدراك الحقائق الإلهية فيؤدِّيا العبادات التي تستوجبها هذه الحقائق.

وذاك يعني أن علة خلق الكون هي وصول الإنس والجن- على حسب مستوى إدراكهم- إلى إيمان كامل بوجود الله ووحدانيته وألوهيته، وتعظيمه بالعبادات.



ولبلوغ هذا المقصود لا بد من إيصال تلك المزايا والسجايا إلى درجات الكمال والسمو بالمدد الإلهي المتمثِّل بإرشاد الأنبياء وتبليغهم.

فكما أن العين تحتاج إلى الضوء من أجل الرؤية، كذلك العقل والقلب يحتاجان إلى الاستنارة بنور «القرآن» و«السنة» من أجل التفكر والتدبر والوصول إلى الحقائق التي وضعها الله في الكون. فقد خلق الله ﷿ عقلَ الإنسان بصورة لا توصِله إلى الحق والخير إلا بنور القرآن والسنة.

ولولا آفاق التفكر التي فتحها أمامنا القرآن والسنة لما أدركنا كثيرًا من الحقائق بعقولنا، ولا استطعنا التعبير عنها بألسنتنا، ولا نجونا من الهلاك في سراديب الظلام التي وقع فيها كثير من الفلاسفة.

والتاريخ شاهد على أن الفلسفات البشرية التي تَعِد الإنسان بالسعادة والطمأنينة الدنيوية لا غير، لم تنجز لأصحابها ولا مُتَّبعيها وعودها. فالفيلسوف الذي هو إنسان في نهاية المطاف يعجز عن معرفة حقيقة الوجود، ولا يمكن مقارنة قدرته بقدرة خالقه ﷿. وأما الأنبياء الذين يمدهم الله تعالى من عنده وأولئك الذين ساروا



على دربهم من العلماء والعارفين، فيقدِّمون للبشرية إرشادات يوصلهم إلى السعادة في الدارَين، لذلك يبقى ذكرهم في الأفئدة حتى بعد موتهم.

ولم يُحرَم البشر من التبليغ الإلهي والتربية النبوية في أي عصر من العصور، بل استمرت الحياة بإرشاد زهاء ١٢٤ ألف نبي على حسب الرويات، ثم تشرَّف الناس في آخر الزمان بآخر الأديان، دين الإسلام العظيم الذي يلبي على أفضل صورة حاجات هذا الزمان. وقد أكمل المولى ﷻ دين الإسلام في ثلاثة وعشرين عامًا، وهي مدة نبوة سيدنا محمد ﷺ، وبذلك أتمَّ نعمة الدين لعباده، وبيَّن لهم أن الإسلام بعد ذلك اليوم هو الدين عنده، وأن من يبتغي غير الإسلام دينًا فلن يقبل من البتة.[1]

إن الإسلام رؤية كاملة للحياة لا مثيل لها، ولكي نحكم على أي نظام أو منهاج بأنه رؤية كاملة للحياة، فلا بد من أن يجيب عن كل سؤال يطرحه العقل، وأن تكون الأجوبة متطابقة غير متعارضة في إطاره، ومعروضةً في تسلسل منطقي، غير أن هذه الخصال لا نجدها إلا في رؤية الإسلام للحياة.

---

١ انظر: المائدة: ٣؛ آل عمران: ١٩-٨٥.



فالإسلام رؤيةٌ تحيط علمًا بالمجالات كلها ومنظومةٌ كاملة لقواعد السلوك. وهو دين ينظِّم علاقة الإنسان بالخالق والكون والبشر بمجموعة من القواعد الثابتة التامة، ولا يترك جزءًا من هذه العلاقة إلا وقد نظمها، فهو بذلك كالدليل الذي نحتاج إليه لدى استخدام إحدى الآلات التقنية.

وأما الأديان السماوية الأخرى التي لعبت فيها الأيادي البشرية، والأديان الباطلة التي وضعها البشر- لا سيما رؤية الفلاسفة للحياة- فما أكثر النواقص والمتناقضات فيها.

قرَّاءنا الأعزاء:

إننا اليوم نحيا حياة لطَّختها الشهوات واجتاحتها الغوائل النفسانية نتيجة النظام الرأسمالي وما يمليه علينا، ونتقلَّب في عصر صار فيه فكر الإنسان محصورًا بين فكَّي الماديات نتيجة ثقافة العولمة. ونشاهد مع الأسف المذاهبَ الفكرية والنظم البشرية العقلية وهي تحارب الدين والروحانيات، وتسعى لإخراجها من صفحات الحياة كلها.



وكانت نتيجة التناقضات في ما احتوته اليهودية التي حرَّفتها اليد البشرية، والنصرانية التي حُوِّرت عقائدها في مجامع الرهبان،[2] ظهورَ فكرة جديدة ردًّا على تلك التناقضات، وهي: «العقل أولًا ثم الدين».

ومن الطبيعي أن تتوجه العقول المفكِّرة إلى مصادر أخرى حينما يقف الدين المحرَّف عاجزًا عن إجابتها.

---

٢ كانت بداية تلك المجالس التي غدت مثالًا واضحًا جليًّا لتحريف البشر لدين سماوي على النحو التالي:

في سنة ٣٢٥ م أُضيفَت الألوهية إلى سيدنا عيسى عليه السلام في مجمع إزنيك [نيقة]، وفي سنة ٣٨١ م أُضيفَت الألوهية إلى الروح القدس في مجمع قسطنطينية.

وفي مجمع أفس عام ٤٣١ م أضيفت صفة «والدة الإله» إلى السيدة مريم، وأُجمِع على أن لسيدنا عيسى عليه السلام طبيعتان: إنسانية وألوهية.

أما في مجمع كاديكوي عام ٤٥١ م فقد أُعلِن بطلان إدعاء الكنائس الشرقية (الأقباط، والأرمن، والسريان، والحبشية) بأن لسيدنا عيسى عليه السلام طبيعة ألوهية فقط.

واتخذ مجمع إزنيك الثاني عام ٧٨٧ م قرارًا بجواز عبادة المجسَّمات وتقديسها، مع أن جواز ذلك أو حرمته كان موضوع نقاش قبل ٢٠٠ سنة، حتى إن الإمبراطور أحيانًا كان يحرم ذلك.

وبينما تقبل الكنيسة الأرثودوكسية المجامع السبعة الأولى، تقبل الكنيسة الكاثوليكية ٢١ مجمعًا وآخرها المجمع المنعقد سنة ١٩٦٥، وفي هذا المجمع الأخير للفاتيكان طُرِحت فكرة الحوار مع الأديان والمذاهب الأخرى.

ولأن أكثر تيك العقول قد بُرمِجت على عداء الإسلام عداءً أساسه التعصب منذ عصور طويلة، باتت محرومة من فرصة التوجه إلى الإسلام، ومعرفة أن ما تبحث عنه موجود في هذا الدين. لهذا كان قليل هم الذين وصلوا إلى السعادة بدفعهم هذي العصبية المتوارثة، وإلقائهم نظرة على الإسلام. وفي الآونة الأخيرة ازداد عدد هؤلاء لانتشار وسائل التواصل، ومع ذلك لم يصل هذا الرقم إلى المستوى الكافي، لذا علينا ألا نندهش حينما نرى رواج الفلسفة إلى ذاك الحد في الغرب.

ومن المفاهيم الخاطئة الشائعة بين المسلمين «ضرورةُ ترجيح العقل على الدين من أجل التقدم الحضاري». والعلة وراء ذلك إنما هي وصول الغرب إلى موقع قوي ومكانة سامية على مستوى العالم في المجالات التقنية والاقتصادية لاهتمامه بالبحث والعمل واتخاذهما أساسًا له. ومثل هذه الأفكار العوجاء تنتشر كالنار في الهشيم وتنتقل بين أذهان المسلمين كالوباء، متجاهلين حقيقة أنهم هم أنفسهم صنعوا أعظم حضارة في تاريخ البشرية جمعاء، عندما تمسكوا بدينهم بصدق وولاء.



وأمام هذه المخاطر، لا بد للمسلمين- لا سيما المشتغلين بالعلوم الإسلامية- أن يحذروا أشد الحذر، ويدقوا ناقوس الخطر، ويكون سلوكهم سلوك الحاذق المتبصِّر.

فالسبب الأساسي في طلب الناس الفلسفة الغربية والرغبة فيها إنما هو الجهل بعظمة **الإسلام ورؤيته للحياة**، وحال هؤلاء لا يختلف عن حال الذي لا يعلم الشمس، فتراه مندهشًا معجبًا حينما يرى ضوءًا خافتًا يشع من شمعة صغيرة.

ولا مناص لنا من أن نُحيط علمًا بكل ما يتعلق بـ «العقل والفلسفة» من المنظور الإسلامي، ونجيب عن الأسئلة المختلفة التي يوجهها إلينا طلابنا هذه الأيام، التي يُثار الجدل فيها حول وجود دروس الفلسفة في مناهج كليات الشريعة.

وأمام هذا الواقع، وجدنا أنه من الواجب علينا أن نعرض لقرائنا الأعزاء بعضَ الحقائق التي سعينا للتعبير عنها بوسائل كثيرة، وجمعناها في هذا الكتاب المتواضع جمعًا منظَّمًا.



وأثناء إعداد هذا الكتاب وجدنا النفع في مؤلفات كثيرة لا بد من أن نذكرها هنا، ويأتي في مقدمتها: «رؤية الإسلام للحياة» لقادر مصر أوغلو، و«التفكير الغربي والتصوف الإسلامي» لنجيب فاضل، و«المنقذ من الضلال» للإمام الغزالي، و«المكتوبات» للإمام الرباني، وبعض من مؤلفات الشيخ بديع الزمان النورسي.

اللهم لا تحرمنا من فيوضات كتابك المبين، ومن اتباع أنبيائك وورثتهم من العلماء والعارفين. واجعلنا يا رب ممن يعرفون قيمة هذا الدين، ويدركونه حق إدراكه ويحيونه كل حين، واحشرنا مع عبادك المرضيِّين يا رب العالمين.

آمين!....[3]

عثمان نوري طوبَّاش

كانون الأول ٢٠١٣

أُسكُدار

---

٣ أتوجه بالشكر لمحمد عاكف غوناي الذي بذل جهدًا في إعداد هذا الكتاب، وأدعو ربي أن يكون عمله هذا صدقة جارية في ميزان حسناته.



ثمة أسئلة شغلت الأذهان في الماضي وما فتئت تشغلها في أيامنا، منها:

ما موقع الفلسفة في الإسلام؟ إلى أي نقطة يمكن أن يوصلنا «العقل» الذي تراه الفلسفة أعظم الوسائل في بلوغ الحقيقة؟ هل لميزان العقل قدرة على قياس الحقائق كلها؟ كيف لنا أن نكمل الطريق بعد وقوف العقل في نقطة ما؟

في البداية لا بدَّ لنا من أن نبيِّن أن الفلسفة تستند إلى العقل، أما الإسلام فيستند إلى النقل (القرآن والسنة)، والعقل ضمن حدوده الطبيعية. وشتَّان بين نظام تفكير يعتمد على حقائق بلَّغها الخالق العليم، والفلسفة التي تعتمد على العقل بقوته المحدودة وضعفه البشري، والفارق كبير بينهما في الطريقة والواسطة وقوة التفكير والتخيل، حتى لو وجدنا تشابهًا بينهما في الموضوع والغاية.



والمقصود من كلمة «الفلسفة الإسلامية» المتداولة هذه الأيام إنما هو آراء المفكرين الذين تأثروا بالفكر الإسلامي، أو آراء أولئك الذين كان للفلسفة نصيب وافر من فكرهم وعاشوا في العالم الإسلامي.[٤] وقد يكون المُراد من الفلسفة الإسلامية التعريف بالحقائق المجردة في الدين، ولكنها لا تعني البتة جواز الفلسفة في الإسلام.

والإسلام دين عقلاني يعظِّم شأن العقل إلى حد ما، ويجعله شرطًا من الشرطَين الأساسيين في التكليف. فالشرط الأول أن يكون المرء بالغًا، والثاني أن يكون عاقلًا؛ أي يكون صاحب ملكة عقلية قادرة على التفريق بين الحلال والحرام، والثواب والعقاب، والصواب والخطأ، لهذا لا يُعدُّ الأولاد والمجانين مسؤولين عن أفعالهم في الإسلام.

ويحث الإسلام المؤمنين بكل وسيلة على التفكر في الحكم الإلهية وحقائق الكون والحياة، وهو ما لا يمكن القيام به إلا بـ «عقل سليم» خالٍ من العيوب.

---

٤ انظر: قادر مصر أوغلو، رؤية الإسلام للحياة، ص٣٢-٣٣، دار سبيل للنشر، إسطنبول ٢٠٠٨.

وقد بيَّن الإسلام لكل ذي لب أن قدرة العقل على إدراك الحقائق قدرة محدودة، فالله سبحانه وتعالى لم يمنح أحدًا من خلقه قدرة مطلقة.

والطاقات الموهوبة للمخلوقات من ربها محدودة، فيمكن للعقل أن يعين صاحبه إلى حدٍّ ما في سبيل الوصول إلى الحقيقة. وأما حقائق الحياة والكون، فلا نهاية لها ولا يستطيع العقل أن يحيط بها علمًا. وتُظهِر لنا هذه الحقيقة أن العقل «واجب» في إدراك الحقائق بمعناها الكامل ولكنه «غير كاف»، لهذا يُطلِق علماء الإسلام على العقل اسم «العقل الناقص» أو «العقل الجزئي».

من أجل ذلك يتحقق الإيمان «**بإقرار اللسان، وتصديق القلب لا العقل**». **ويوضِّح** هذا الأساس الإسلامي أن بلوغ الهدف المراد والغاية المقصودة لا يكون بواسطة العقل فحسب، بل بـ «التسليم» القلبي، التسليم الذي يبدأ في النقطة التي يقف عندها العقل عاجزًا وتنفد طاقته.

فالحقائق التي نصل إليها بالعقل البشري مهما علا مستواه إنما هي بمثابة «لا شيء» مقارنة بما يعلِّمنا إياه خالقنا الذي ﴿...**وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [طه: ٩٨]



أما علم الإنسان فعلم ناقص، فالإنسان لا يدري ما سيحل به غدًا، لا بل بعد دقائق معدودات.

ونخلص من هذا كله أن العقل حينما يُستعملُ في سبيل فهم آيات ربه وحِكَمه، فقد بلغ مقصوده والغاية من خلقه.





من سوى صاحب التحفة الفنية لديه تلك المشاعر والأحاسيس والأفكار التي كانت سببًا في تشكيلها؟ وكيف لامرئ أن يطَّلع بعقله على الحقائق والحِكم الإلهية المخفية في الوقائع والأحداث اطلاعًا كاملًا؟ فثمة فرق بين علم الخالق وعلم المخلوق، وبين القطرة والبحر الواسع الذي لا يُرى له حد.

لهذا لا يمكن للإنسان أن يدرك الله سبحانه الذي خلق الكون من عدم إدراكًا تامًّا صحيحًا، فوسائل الإدراك التي يستخدمها البشر وسائل قاصرة محدودة تنحصر في الحواس الخمس والعقل والقلب. والإنسان يقف عاجزًا بين يدي الله الباقي الأزلي، فإدراك بوسائل محدودة لا بد من أن يكون ضمن معايير محدودة أيضًا، أي إننا لا نستطيع أن نغرف الماء من اليم إلا بحجم إنائنا.



ويلخص هذه الحقيقة الحديثُ الشريف الطويل الذي يصف فيه رسول الله ﷺ صحبة موسى الخضرَ عليهما السلام، ونقتضب منه هنا قوله:

«ثم جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضرُ عليه السلام:

(يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر)».[٥]



٥ البخاري، التفسير، ١٨/ ٢-٤/ ٣٤٠١.



إن «الإيمان بالغيب» أمر من أوامر الإسلام، لأن كثيرًا من الحقائق الإلهية لا يمكن أن تُدرك بالعقل إدراكًا تامًّا.

وأقوى دليل على هذه الحقيقة المناقشاتُ والمجادلات منذ فجر التاريخ حول «ماهية الروح».

فمن المعلوم أن الفلاسفة منذ عصور لا يألون جهدًا في سبيل الوصول إلى حقيقة الروح، غير أنهم في نهاية المطاف وجدوا أنفسهم جاهلين ماهيته ومجبرين على الاعتراف بوجوده استنادًا فقط إلى المظاهر التي يعكسها على السلوك.

وقد جرت على مدى العصور مناقشات حول هذا الموضوع الذي يعد أحد البحوث الفلسفية، فكانت النتيجة أن تأسَّس علم جديد مختلف عن الفلسفة وهو



«علم النفس». وليس موضوع هذا العلم في أيامنا السعيُ لفهم ماهية الروح، بل تبنِّي فكرة وجوده «بالبداهة»، ثم البحث في الحوادث الناتجة عنه وعلاقتها بالأشياء المادية.

وهذا ما يوضِّح لنا أن لا مناص للفلاسفة من قبول محدودية العقل وقصوره، فاليوم لا ينشغل أي فيلسوف بفهم ماهية الروح، بل يقتصر عمله على بحث أسباب الحوادث التي لها صلة به ونتائج تلك الحوادث، فغدا هذا العلم علمًا يعتمد على التجارب لا غير، على أن القرآن الكريم بيَّن هذه الحقيقة قبل ما يزيد عن ١٤٠٠ عامًا، وأوضحَ أن الإنسان لن يعلم ماهية الروح، وأنه ما أوتي من العلم إلا قليلًا.[٦]

أي إن القرآن الكريم يأتي في المقدمة، ثم يسير العلم البشري وراءه مجبرًا على تصديقه. وذاكم يبيِّن لنا ضعف نتائج الأبحاث كلها وعجزها أمام ما يؤكده القرآن ويثبته، وأن لا حيلة لنا سوى التسليم للحقائق الواردة في هذا الكتاب الكريم.

٦ انظر: الإسراء: ٨٥.



ولا طاقة لعقل الإنسان أيضًا في إدراك ماهية ذات الله سبحانه وتعالى، لذا كانت نتائج الأبحاث في هذا الموضوع هباءً منثورًا، يقول رسول الله ﷺ:

«**تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله**».[٧]

ويقول ابن عربي (توفي سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م):

«كل ما خطر ببالك، والله وراء ذلك».

ذاك يعني أننا عندما نسعى لإدراك الله تعالى، يجب علينا الإقرار مسبقًا بوجوده انطلاقًا من تجليات صفاته، كما هو الحال في مسألة الروح.

أي إن الإسلام يفرض على الإنسان الابتعاد عن الجدل في مثل هذه الموضوعات التي هي جزء من الأسرار الإلهية، والتي تتجاوز حدود العقل، لا بل يأمره بالتسليم للأحكام الإلهية تسليمًا تامًّا، فكلمة «الإسلام» مشتقة من الجذر «سلم»، وتعني التسليم لله تعالى، والإيمان يقتضي قبول مجموعة من الحقائق التي تفوق العقل ويعجز عن قياسها.

---

٧ انظر: الديلمي، جـ٢، ٥٦؛ الهيثمي، جـ١، ٨١؛ البيهقي، شعب، جـ١، ١٣٦.



ويضرب الله ﷻ لنا في سورة الكهف[8] مَثلَ سيدنا موسى عليه السلام حينما صحب سيدنا الخضر من أجل تحصيل العلم اللدني،[9] فما إن رأى تجليات ربه الغيبية التي لا يستوعبها العقل، وقف حائرًا مندهشًا أمامها. فقد كان سيدنا الخضر عليه السلام مرسلًا من عند الله سبحانه، أما سيدنا موسى عليه السلام فقد كان نبيًّا من أولي العزم مكلفًا بتبليغ الشريعة، لذلك كان ما رآه من الخضر مخالفًا للشريعة في الظاهر، ولغزًا يُشْدِه العقول، فاعترض حينما لم يدرِ الحكمة من المسألة بعقله.

وكان سيدنا الخضر قد أخبر موسى عليهما السلام في بداية رحلتهما أنه لن يستطيع معه صبرًا، فبذلك أشار إلى استحالة اطلاعه على الحكمة بالعقل، وعجزه عن الطيران في تلك الآفاق إلا بجناح التسليم لله تعالى.

وحينما وضع الخضر بين يدي موسى عليهما السلام الحكمةَ من بعض الحوادث، أدرك يقينًا وجودَ حقائق يقف العقل رافعًا راياته البيضاء أمامها.

---

٨ انظر الآيات: ٦٦-٨٢.

٩ العلم اللدني: العلوم الغيبية التي تتجاوز إدراك الإنسان، ولا يمكنه الحصول عليه إلا بلطف الله وكرمه.

وجاء في الحديث الشريف قوله ﷺ:

«رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر لرأى من صاحبه العجب العاجب».[١٠]

وهذا ما يقودنا إلى القول أنه يجب على المسلم أن يؤمن بالحقائق الغيبية التي لا يقيسها العقل، ولا يعلمها إلا الله تعالى وأولئك الذين أذن لهم بعلمها.

لذا من العسير البحث عن الحقيقة التي يسعى وراءها العقل السليم بحثًا سليمًا إلا بالتسليم لما جاء من عند الله سبحانه.

فالعقلانية في الإسلام مختلفة تمامًا عن الفلسفة العقلانية التي تقدِّس العقل وترى قدرته في البحث عن الحقيقة قدرةً مطلقة، لإن الإسلام نظام واقعي ومنهج حقيقي يضع العقل في موقعه الصحيح ضمن حدوده الطبيعية.

١٠ البخاري، الأنبياء، 27؛ أحمد بن حنبل، جـ5، 118.

كما أن قدرة العين على الرؤية وقدرة الأذن على السمع محدودتان، فكذلك قدرة العقل على الإدراك محدودة. فثمة كائنات في الكون لا تعد، تعجز العين عن رؤيتها لأنها وراء حدود الرؤية، وأصوات كثيرة لا تسمعها الأذن لأنها تفوق مستوى السمع. وكذلك نقول: ما أكثر الحقائق التي لا يُدركها العقل، لأنها تقف خارج حدود إدراكه، ويقف عاجزًا عن فهمها فهمًا تامًّا.

وفي هذا يقول العالم الإسلامي الكبير ابن خلدون الذي يُعدُّ أبا علم الاجتماع وفلسفة التاريخ:

«العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والأخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء



طوره، فإن ذلك طمع في محال. ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يُدرَك. على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حد يقف عنده، ولا يتعدى طوره».[11]

وما أبلغ الشاعر ضياء باشا حينما وضَّح هذه الحقيقة في قوله:

لا ينفع العقل في إدراك المعالي

فميزانه لا يحمل مثل تلك الأثقال

أي إن للعقل حدودًا واضحة إن تجاوزها فمآله الجنون أو الضلال. ولنضرب هنا مثلًا آلةً صُنِعت لتعمَل بطَاقة ٢٢٠ فولط، فإن أردنا تشغيلها بطَاقة ٢٥٠٠ فولط، فستنفجر رأسًا مهما كان تصنيعها كاملًا. ومثال واقعي آخر عن هذي الحقيقة نراه في بعض الفلاسفة الذين اعتقدوا أن قدرة العقل لا حدود لها، فانتهى بهم المطاف إلى الانتحار أو مستشفيات الأمراض العقلية.

١١ ابن خلدون، المقدمة، ص٤٧٣.



إن الفلاسفة الذين يدَّعون الوصول إلى الحقيقة وهم بعيدون أشد البعد عن الوحي (القرآن والسنة)، يجرون أتباعهم دائمًا إلى التعاسة بدل السعادة، وإلى الضلالة بدل الحقيقة والهداية.

ويسرد لنا أحمد حلمي فيليبالي في كتابه «أعماق الخيال» حكايةً مجازيةً يشير فيها إلى سُبل تحويل التعاسة إلى سعادة. وخلاصة الحكاية أن بطلها «راجي» كان من الذين وقعوا في الفلسفة المادية، فنجده يتضور في ثنايا أزمات نفسية وضائقات روحانية، ويبحث عن السعادة والطمأنينة. وأثناء استماعه لشعر «آينالي بابا» بمعانيه العميقة مصحوبًا بنغمات العود الارتجالية، يغوص راجي في أعماق الخيال، فيرى نفسه في مجلس من المجالس فيه حشد من الناس، الأنبياء والأولياء والفلاسفة وشخصيات سامية ودنيئة. وفي المجلس رجل يمثِّل الناس كلهم اسمه «بشرية»، وكان هذا الرجل



يشهق باحثًا عن السعادة الحقيقية، فيصرخ فيهم:

«أنبئوني، ارحموني، إنني اشمئز من هذي الحياة ولا مفر منها. أخبروني ما السعادة؟»

فينبري له بعض الجلساء في ذلك المجلس، وتتوالى الإجابات على النحو التالي:

يقول كونفوشيوس: «السعادة هي أن تجمع اللذات كلها في قِدر من الأرز».

فيقول أفلاطون: «السعادة هي التفكير السامي».

فيقول أرسطو: «السعادة هي المنطق».

فيقول زرادشت: «السعادة هي الابتعاد عن الظلام».

فيقول براهما:«السعادة؟ هي عكس كل ما يظنه المرء».

فيقول بوذا: «السعادة هي اسم من أسماء الفناء الجميلة. إنها النيرفانا يا بشرية، النيرفانا».

وحينما سمع «بشرية» هذه الإجابات ازدادت حيرته وقال:

«لم تكونوا يومًا ذا نفع لأحد، ولا حتى لأنفسكم. لقد عشتم حياتكم محرومين من السعادة، ولم أجد



أثرًا للسعادة فيما قلتم، إنكم لم تشعروا بها يومًا، ولا منحتموها لمن تبعكم».

ثم شرعَ الأنبياء بإيضاح السعادة، وكان آخرهم إمام الأنبياء وخاتم الرسل محمد ﷺ، فخاطب «بشرية» قائلًا:

«يا بشرية، السعادة قبولُك الحياة كما هي، وإظهار الرضا بأثقالها، والسعي لإصلاحها».

فقال «بشرية» بعد أن وجد الجواب الذي كان يبحث عنه:

«يا سيد الكون، يا رحمة للعالمين، يا نبينا العظيم، أنت وحدك من يُذهِب هموم البشر ويواسيهم».[12]

فنفهم من هذه الحكاية وجوب القبول بالقَدَر المطلق دون اعتراض، وعدم السعي لتغييره بصورة عبثية.

وهذا ما يبيِّن الرؤية «الواقعية» التي يتبنَّاها الإسلام، فالسعي لتغيير أمر قد قضاه الله سبحانه لا يمكن قطعًا، وإنما هو جرُّ البشر إلى معركة خاسرة ليس فيها إلا الشدائد والمصائب والمشقات.

---

١٢ انظر: أعماق الخيال، ص٩٧-١٠١، دار سبيل للنشر، إسطنبول ١٩٩٣؛ ص١٠٦-١١، دار أكشاغ للنشر، أنقرة ٢٠٠٤.



مفتاح الطمأنينة: الرضا والسعي

إن هذه الحياة الفانية التي نعيشها ليست إلا ساحة تظهر فيها تجليات غضب الله تارةً ولطفه تارةً أخرى، وكل ذلك بناء على حكمته سبحانه وتعالى. وما المعرفة الحقيقية إلا أن تخرج بربح عظيم من هذه التجليات كلها، وذلك بجعل إرادتك في سبيل رضا الله. ويبيِّن نبينا الكريم ﷺ هذه الحقيقة في قوله:

«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له».[13]

فأول شرط للسعادة والطمأنينة البشرية إنما هو «الرضا» الواجب إظهاره أمام ما يقدِّره علينا خالقنا ﷻ.

أما الشرط الثاني فهو السعي لإصلاح ما يمكن إصلاحه من المفاسد مع صعوبة ظروف الحياة.

---

١٣ مسلم، الزهد، 64.



وهذا ما يُظهِر وجود أمور في الحياة لها علاقة بالسعي والإرادة البشرية، أي وجود «القدر المعلَّق»، فسعي الإنسان نابع من كونه «صاحب إرادة». فإن بقي الإنسان معلَّقًا بفكرة أنه لا يمكن إصلاح أي مفسدة في هذه الحياة، فسينجر إلى اليأس والتشاؤم، ثم إلى العجز والكسل؛ أي يَظهرُ الخمول عندما لا يبدي المرء أي إرادة مكتفيًا بقوله:

«ماذا يمكنني أن أفعل، قدَري هو ما أنا عليه!»

فإذا كان فهم المرء على هذا النحو، فإن المزايا السامية التي أُعدَّ بها الإنسان مذ خلقه تُمسي بلا قيمة، وما «مذهب القدرية» عند الغرب إلا ذاك الفهم الخاطئ للقدر.

غير أن في الإسلام «قدرًا معلَّقًا» يرتبط بما يظهر من الإرادة البشرية، أي إن بعض الأفعال تُخلَق حينما يطلبها العبد. فالإيمان «بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى» الذي يعد أحد أركان الإيمان لا يعني أنه لن يتغير أي شي، بل وجود إرادته سبحانه وتعالى في كل حادثة، وأنه لن يتحقق أي شيء إلا بعلمه وإرادته.

والفعل حينما يتحقق بإرادة الله تعالى أولًا دون طلب العبد أو سعيه فهو «القدَر المطلق». فالحياة،



والموت، والعِرق، وطول العمر أو قصره، وأمور أخرى أمثالها لا يمكن تغييرها البتة. ولا يمكن القول هنا أن للعبد ثوابًا أو عقابًا بسببها، لأن هذه الأمور ما هي إلا الأساس الذي يوضح مقدار المسؤولية التي تقع على عاتق العبد يوم الحساب.

وللإنس والجن إرادة جزئية، وقد منحهما الله جلَّ جلاله حريةً محددة في بعض الأمور، فللعبد حق الاختيار- اختيار يتحقق بإذن الله تعالى- وهذا ما يُطلق عليه اسم «القدر المعلق». وقد أمر رسول الله ﷺ البشرَ بالسعي لإصلاح المفاسد في الحياة الدنيا لوجود مسؤولية ناتجة عن الاختيار.

ويمكننا أن نوضِّح هذه الفكرة بالمثال التالي:

يأخذ أب طفله الصغير إلى متجر ألعاب ويقول له:

«خذ اللعبة التي تعجبك، فأنت حر في اختيارك».

فإن هو بيَّن لابنه في البداية النافعَ والضار من هذه الألعاب انطلاقًا من رأفته بابنه، ثم منحه الاختيار، فسيكون قادرًا على الامتناع عن دفع المال إن اختار الولد لعبة ضارة، وبذلك لن يتحقق اختياره.



ويمكنه أن يقول بناءً على وعده الأول: «خذ تلك اللعبة، لتلقى الضرر الذي حذرتك منه!»

إن مَثَل هذا العالَم الذي نحيا فيه كمثل متجر الألعاب الذي ذكرناه، ونحن مثل ذلك الطفل. وأما عون الله سبحانه وتعالى بإرساله الأنبياء وتنزيله الكتب- ولله المثل الأعلى- فهو كتحذير ذلك الأب الرحيم.

ولأن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الإرادة الكلية المطلقة، فإن خلقه لفعل العبد بصفته «الخالق» يشبه- ولله المثل الأعلى- تحقيق الأب طلب الطفل بدفعه المال. لذلك قد لا يتحقق ما نودُّه أحيانًا مع أننا نختار ونراعي الأخذ بالأسباب.

وهذه الأحوال وغيرها مما وضَّحناها آنفًا لأن الإنس والجن قد خُلقوا كي يخضعوا لامتحان في هذه الدنيا.

لذلك ينبغي للعبد أن يسلِّم إرادته لإرادة المولى ﷻ، ويجعل ما يتمناه ويوده في سبيل رضا الله تعالى الذي يقول في كتابه العزيز:

﴿...وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ...﴾ [البقرة: ٢١٦]



عقل صغير كعقل النمل...

سنسرد هنا حكاية موجزة أخرى من كتاب «أعماق الخيال» لأحمد حلمي فيليبالي تبيِّن لنا عجز العقل البشري:

في يوم من الأيام زار **راجي** بعد مضي أمد طويل **آينالي بابا**، ودار بينهما حديث استطردا فيه، ثم قدَّم آينالي بابا قهوة لراجي، وشَرَعَ يعزف الناي. وأثناء استماع راجي للناي، غاص مرة أخرى في عالم الخيال، وكانت هذه الرؤيا:

وجد راجي نفسه في الرؤيا أميرًا من أمراء النمل. وأثناء تلقيه علمًا من معلِّميه في المملكة، طلب معلمه أذنًا من والدته الملكة كي يلقنه درسًا تطبيقيًّا في الجغرافيا خارج المملكة. فخرج راجي مع معلمه إلى إحدى الأراضي، وكان ذلك اليوم مشمسًا جميلًا، فجعل المعلم يعلِّمه بعض الأمور قائلًا: «هذا جبل، وذاك نهر...»



وفجأة، زمجرت السماء، ونزل وابل من المطر، فجرف كثيرًا من النمل. غير أن راجي الذي كان له إدراك الإنسان والنمل معًا، رأى ببصر الإنسان ما يجري حوله، فأما ما ظنَّه النمل أنه زمجرة السماء، فلم تكن إلا صهيلَ حصانَين متعبَين يجتران بالقرب منهم، وأما المطر فكان بولهما.

ثم قفل النمل الذين نجوا من هذه الكارثة برفقة معلِّميهم إلى المملكة، وبدؤوا بتفسير ما جرى في ذاك اليوم المشمس تفسيرًا علميًّا منطقيًّا قائمًا على إدراك النمل، لكن لم يكن أي من هذه التفسيرات لها علاقة بالحقيقة.

وعَلِم راجي أنه لو فسَّر تلك الواقعة التي رآها من منظور أوسع- أي من إدراك الإنسان- لما صدَّقه أحد من النمل.

لهذا ظل يحتمل سماع تلك التفسيرات التي لا أصل لها ويصبر. ثم استرجع صورة الحصانين المتعبين، فاستيقظ وعاد من عالم الخيال مقهقهًا، فرأى آينالي بابا مبتسمًا يتمتم بالشعر التالي:



الشمس تشرق والكون يدور

إلى يوم ينطفئ فيه كل نور

فمن هو مسبب الأسباب

يا صاحب العلم والحساب؟[١٤]

نفهم من هذه الحكاية المليئة بالحِكَم أن العقول البشرية المحرومة من إرشاد الوحي الإلهي والمفتقرة إلى الحقائق التي تُدرك بنور النبوة، لا تختلف كثيرًا عن عقول النمل، إن كان حديثنا عن الاطلاع على كنه الحقائق التي لا تعد ولا تحصى، وإدراك تجليات العظمة والقدرة الإلهية الظاهرة في هذا الكون الفسيح.

ولنا أن نذكر هنا أن «الرؤيا» إحدى مظاهر رحمة الله تعالى بالبشر، وهي إشارة وعلامة بالنسبة لنا، لأننا نعجز عن الوصول بأذهاننا إلى حقائق ما وراء الطبيعة. فكم من حادثة لم تتحقق في الحياة، ظهرت في الرؤيا، وهذا ما يُيسِّر لنا إدراك أن ما ذكره الإسلام عن أحوال الآخرة لا ريب فيه.

١٤ انظر: أعماق الخيال، دار سبيل للنشر، ص١١٣–١١٧؛ دار آكشاق للنشر، ص١٢٣–١٢٧.



وإذا ما استثنينا الأنبياء والصالحين ممن ساروا على خُطاهم، فسيتجلَّى أمامنا عجزُ كل من يدعي أنه يبغي إيصال البشر إلى سبيل النجاة، ويكون دليلًا لهم، لا سيما الفلاسفة الذين يعملون على تفسير كل شيء بالعقل.

لقد كان الأنبياء عليهم السلام هُداةً للناس يصدِّق بعضهم بعضًا لإن منبعهم جميعًا كان الوحي الإلهي، أما الفلاسفة فقد أضاعوا أعمارهم وهم يدحضون بعضهم بعضًا، ويفنِّد كل واحد منهم ما جاء به سلفه، لإنهم كانوا محرومين من المدد الربَّاني، مفكِّرين بعقول ناقصة قاصرة تخضع لسلطة نفوسهم التي لم تتلقَّ يومًا تربية معنوية.

ويقول الفيلسوف باسكال الذي ولَّى وجهه شطر الروحانية، بعد أن أدرك عجز العقل وأفنى عمرًا طويلًا داخل دوامة الفلسفة:

«تضع الفلسفة آراءً افتراضية نسبية، فالشيء الذي يُقال عنه حقيقة في هذا الجانب من جبال بيرينيه، يُعدُّ خطأً في الجانب الآخر. والجاني الذي يقتل رجلًا على ضفة نهر بطلٌ على الضفة الأخرى».

لا يمكن القول أن نتيجة كل تفكير فلسفي نتيجة خاطئة، فالفلاسفة أيضًا قادرون على الوصول إلى بعض الأمور الصحيحة لدى مشاهدتهم الكون وتأملهم وتدبرهم.

فالفيلسوف والرياضي ديكارت (١٥٩٤-١٦٥٠) الذي يُعدُّ أبا العقلانية والفلسفة الحديثة قادته المحاكمات العقلية انطلاقًا من «دليل الوجود» إلى نتيجة يقول فيها إنه من الضروري قبول الوحي الإلهي مصدرًا رئيسًا للحقيقة. ويقول في كتابه «تأملات ميتافيزقية»:

«إن الله كائن كامل تام، لا يضِل ولا يُضِل، فعلمه أيضًا صحيح كامل بلا نقصان. ولأنه كامل فإنه لا يَضِل، ولأنه لا يَضِل فعلمه صحيح. وهو الذي لا يُضِل، فكل علم يمنحه صحيح. إن قال إني خلقت الكون، فقد



خلقه. لذلك فإن مصدر العلم القطعي هو علم الله الصحيح».

ويؤيِّد باسكال هذا الرأي في قوله:

«ثمة صوت يأتي من أعماقنا يُنبئنا بأننا خالدون، إنه صوت إرشاد الله».

غير أن الفلاسفة الذين وصلوا إلى فكرة أن قبول وجود الله ضرورةٌ عقلية، مثل ديكارت، وسبينوزا، وباسكال، وكنط وغيرهم، علموا أسس الدين الباطل الذي حرَّفته اليد البشرية، لكنهم لم يصلوا إلى كمال الفكر لأنهم لم يعرفوا دين الإسلام معرفة كافية لتعصبهم وتزمتهم. ولم يذكر لنا التاريخ حتى يومنا هذا أي فيلسوف من الفلاسفة الأجلَّاء قد وصل إلى شرف «التوحيد» الذي يعد أول شرط للسعادة في الدارين في هذا الدين المبين. وحال هؤلاء يذكِّرنا بقول نجيب فاضل:

«أولئك الذين دنوا من مرفأ الإسلام، لكن فاتتهم السفينة الأخيرة لأنهم لم يخطو الخطوة الأخيرة».[١٥]

---

١٥ نجيب فاضل كيساكورك، التفكير الغربي والتصوف الإسلامي، ص٥١، دار بيوك دوغو للنشر، إسطنبول ٢٠١٢.

وإن كانا العقل والفلسفة يُوصِلان الإنسان إلى عتبة الفلاح الأبدي ولكنهما يعجزان عند الخطوة الأخيرة، فما نفعُهما؟.. وما أعظم المعاني في قول نجيب فاضل:

«الفلسفة مؤسسة بناها العقل كي يُظهِر سطوته، مؤسسة لا تجد الصواب، بل تصوِّب الخطأ... إن كل مدرسة في الفلسفة تقول الصواب بإظهارها أخطاء المدارس الأخرى».[١٦]

من أجل ذلك كله، لا يمكننا القول إنه لا نفع من آراء الفلاسفة ذوي الدين، فآراؤهم ترياق لسم الإنكار الذي ينفثه الفلاسفة الملحدون الماديون. ومن المعلوم أن بعضًا من أعداء الدين، الذين سدُّوا أبواب عقولهم وقلوبهم للأبد أمام الأدلة المستندة إلى الآيات والأحاديث لتزمتهم وتعصبهم، قد وقفوا عاجزين أيضًا عندما قُدِّمَت إليهم الأدلة الدامغة من الفلسفة نفسها.

ويشير بديع الزمان النورسي إلى عدم وجوب رفض محصول التفكير الفلسفي المتطابق مع القرآن، وضروة فصل الحق عن الباطل في هذا المقام، فيقول:

١٦ التفكير الغربي والتصوف الإسلامي، ص١٤.



«إن الفلسفة التي نهاجمها ونصفعها بصفعاتنا القوية إنما هي الفلسفة المضرة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأن قسم الحكمة من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد السبل للرقي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل خادمة لحكمة القرآن ولا تعارضها...

أما القسم الثاني من الفلسفة، فكما أصبح وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد، والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للفلسفة الطبيعية، فإنه يسوق الإنسان إلى الغفلة والضلالة بالسفاهة واللهو. وحيث إنه يعارض بخوارقه التي هي كالسحر الحقائق المعجزة للقرآن الكريم، فإن المؤلفات التي كتبناها تتصدى لهذا القسم الضال من الفلسفة في أغلب أجزائها، وذلك بنصبها موازين دقيقة، ودساتير رصينة، وبعقدها موازنات ومقايسات معززة ببراهين دامغة. فتصفعها بصفعاتها الشديدة، في حين أنها لا تمس القسم السديد النافع من الفلسفة».[١٧]

١٧ انظر: عصا موسى، ص٤، مطبعة عثمان ياالجين، إسطنبول ١٩٥٨.



«ولا يمكن أن تقف حقائق الفلسفة البسيطة أمام حقائق القرآن الساطعة».[18]

إن أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن العقل كاف لإدراك وجود الله سبحانه، لا إدراك ذاته وصفاته الثبوتية، فهو سبحانه متعال منزه، متصف بصفات الكمال كلها، وهو وحده الكامل كمالًا يفوق الإدراك، فالعقل وحده عاجز عن إيجاد الحقائق التي بلَّغها المولى ﷻ للبشر.

فكما أننا قادرون على إدراك بعض الأمور بعقولنا مع أننا لا ندركها بأعضاء حواسنا، كذلك نفهم بعض الأمور التي لا تدركها عقولنا بتبليغ الأنبياء.

يقول الإمام الرباني رحمة الله عليه في هذا الموضوع:

«لا مناص من وجود الأنبياء ليدلوا على كيفية أداء شكر المُنعِم الذي هو واجب عقلًا... فإن التعظيم الذي لم يكن مستفادًا من عنده سبحانه لا يكون لائقًا بأداء شكره تعالى، وإن القوة البشرية عاجزة عن إدراكه، بل كثيرًا ما يظن غير تعظيمه تعالى تعظيمًا فيعدل عن الشكر إلى الهجو. وطريق استفادة تعظيمه سبحانه من

١٨ الكلمات، ص٣٥١، دار أنوار للنشر، إسطنبول ١٩٩٥.



حضرته تعالى وتقدس مقصور على النبوة، ومنحصر في تبليغ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. والإلهام الذي هو للأولياء عليهم السلام مقتبس من أنوار النبوة ومستفاض من بركات متابعة الأنبياء وفيوضها»[١٩]

لذا فإن العقل يحتاج إلى عون الوحي لا محالة. ولولا هذا المدد الإلهي، لما وصل إدراك الإنسان إلى الكمال، ولما نجا من الانجرار إلى التناقض والتضاد، والانحراف عن الصراط.

فينبغي الوقوف أمام الفلاسفة الملحدين الماديين الذين ينكرون الدين، وفصل الصحيح عن الخطأ في أفكار الفلاسفة الذين يولون أهمية للدين، وذلك بقياسها بميزان الحقائق الإسلامية.

فالفلسفة التي لا تقوم على «الدين الحق» لا يمكن أن توصِل الإنسان إلى الحقيقة. ولا يمكن إلا للدين أن يضع معتقدات مطلقة خالدة يؤمن بها المرء، فالأنبياء لا ينطقون عن الهوى، بل بوحي يوحى، مبلِّغين أوامر الله سبحانه وتعالى، وأما الفلاسفة فيُطلقون أحكامًا نسبية شخصية نابعة من أهوائهم ورغباتهم النفسية.

---

١٩ المكتوبات، المجلد ٣، مكتوب رقم ٢٣.



إن نظرنا إلى تاريخ البشرية وقلَّبنا صفحاتها صفحة صفحة، فلن نجد أي مجتمع وصل إلى السعادة والسلامة بتطبيقه آراء الفلاسفة، ذلك لأن الأفكار التي جاؤوا بها لم تكن إلا نظريات لا يمكن العيش بمقتضاها، فبقيت أغلبها حبيسة كتب تآكلت على رفوف المكتبات. وأما بعض الأفكار الفلسفية التي وجدت سبيلًا لها إلى الحياة، فما نفعت إلا في سفك الدماء وذرف الدموع على هذه الأرض، ثم كان مصيرها أن رُميَت في مزبلة التاريخ.

ومثال ذلك أننا لن نجد أحدًا في هذه الحياة قد آمن بفلسفة أرسطو وطبَّقها ثم وصل إلى السعادة، مع أنه أولُ من وضع مجموعة من قواعد فلسفة الأخلاق.

وأما المجتمع الطوباوي الذي نادى به أفلاطون في كتابه «الجمهورية» فلم يكن أكثر من تصور خيالي للدولة المنشودة.



وكذلك الأمر عند الفاربي الذي اهتم بالفلسفة وتربى في العالم الإسلامي، فكتابه «المدينة الفاضلة» الذي يعد أعظم مؤلفاته لم يكن له أساس في الواقع، بل ظلَّ كتابًا خياليًّا احتوى أفكارًا تتعلق بـ«المدينة الجميلة والمجتمع المثالي».

وكل ذلك لأن هذي المؤلفات لم تكن حقائق كُتِبت من أرض الواقع، فكان مصيرها الإهمال وساء ذلك مصيرًا.

وإذا انتقلنا إلى العالم الغربي سنجد في أفكار نيتشه وتصوُّراته حول الإنسان المثالي مثالًا واضحًا عن ما نتحدث عنه هنا. فالخصائص والصفات التي وضعها في ذهنه حول هذا الإنسان ظلَّت نظريةً تعوزها إمكانية التطبيق في الحياة، ولم يتَّخذ أحد هذا «الإنسان المثالي» أسوة له.

غير أن الإسلام نظام لا يماثله نظام، ففيه قسطاس مستقيم وضوابط لكمال السلوك من حياة الأنبياء التي تعد أسوة للناس. ومن اليسير أن يقول المرء عن سلوك ما أنه خير أو شر، صواب أو خطأ، جميل أو قبيح، لكن ذلك لا بد من أن يكون مدعومًا بنماذج فعلية، فالرجل

إن كان واعظًا آمرًا بالصدقة، ولكنه هو نفسه لا يطبق هذا العمل، عندها تقع الطامة الكبرى.

وقد جعل الله تعالى نبيه الكريم محمدًا ﷺ أسوةً لنا أجمعين، ذلكم النبي الذي كان يومًا ما يتيمًا في مجتمعه، ثم رفعه إلى أعلى مقام، إلى «النبوة» و«قيادة الدولة الإسلامية». فغدا سلوكه في كل أمر وحادثة قسطاسًا عمليًّا للبشرية، ومعيارًا لكمالها، ودستورًا لحياتها.

ولم يُنزِل ربنا ﷻ القرآنَ الكريم دفعة واحدة أو في أمد قصير، بل مُنجَّمًا في ٢٣ عامًا من حياة رسول الله ﷺ. وكل آية نزلت وفيها حكم من الأحكام نفَّذها أولًا نبينا الكريم- الأسوة الحسنة- لذا صار الحُكم واضحًا جليًّا أمام الأمة الإسلامية.

وبقيت الأمثلة من حياة نبيِّنا- كما القرآن الكريم- معاييرَ نقيس عليها، وغدت أمثلة واقعية للأمة في معاملاتها كافة. وبقيت أفكار نيتشه حول «الإنسان المثالي» نظرية لا أكثر ولا أقل لأنها افتقرت إلى مثل هذا القسطاس المستقيم، ولمَّا يصل أي نظام أخلاق ينتجه العقل البشري إلى كمال القسطاس المستقيم الذي وضعه الإسلام بين أيدينا.



ولقد كانت المجتمعات تعيش في طمأنينة وأمن وسعادة حينما جعلت قدوتها الأنبياء ومن سار على دربهم من العارفين والعلماء من أهل الله، وأدركت ما جاؤوا به من حقائق وخضعت للأوامر والنواهي.

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى للبشرية جمعاء خاتمَ الأنبياء محمدًا ﷺ ليكون أسوة لها، ولتبلغَ كمال السلوك. يقول ﷻ في كتابه العزيز:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]

وكم من أمة انعدمت فيها الإنسانية حتى صارت في الحضيض لشدة جهلها وظلمها، ولكنها بعد أن جعلت رسول الله أسوة لها في أحوالها ومعاملاتها واتبعت ما جاء به هذا النبي الكريم من تبليغ وإرشاد، ارتقت ذروة الإنسانية والفضيلة والأخلاق والرحمة والرأفة والحق والعدالة.

ويقول في ذلك شهاب الدين القرافي (توفي في سنة ٦٨٤هـ)، وهو من كبار علماء الإسلام في الفقه والأصول:

«لو لم يكن لرسول الله ﷺ أي معجزة، لكفاه الصحابة الكرام الذين ربَّاهم دليلًا وشاهدًا على نبوته».

فقد صار رجال ذلك المجتمع الإسلامي الأول كالنجوم اللامعة في آفاق الفضيلة والإنسانية، بعد أن خضعوا لتربية نبوية، ونجوا من ظلام الشرك ووحشية الجاهلية، ثم تبعهم جيل من المؤمنين صنعوا حضارة إسلامية عظيمة تنظر البشرية إلى آثارها بغبطة حتى يومنا هذا.

ويعبِّر المفكر والمؤرخ الفرنسي لامارتين عن عبقرية رسول الله ﷺ مستندًا إلى نجاحه في نشر دعوته، بقوله:

«إذا كانت عظمة الهدف، وضعف الوسائل، والنتيجة الكبيرة التي تحققت، هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الإنسان، فمن يجرؤ بعد الآن على مقارنة عظماء التاريخ الحديث مع النبي محمد؟

إن أشهر الرجال العظماء شكَّلوا جيوشًا، ووضعوا قوانين، وبنوا إمبراطوريات؛ لكنهم لم يؤسسوا- حينما أسسوا شيئاً ما- إلاّ قدرات مادية، غالباً ما انهارت قبل انهيارهم.



أما هو فلم يُحرِّك الجيوش والتشريعات والإمبراطوريات والشعوب والسلالات المالكة فحسب، بل وملايين الناس في ثلث المعمورة».[20]

ويقول الكاتب الإنكليزي توماس كارليل:

«لم يرَ أي إمبراطور ما رآه محمد- الذي كان يرقِّع ثوبه بيديه- من المحبة والاحترام».

فلم يكن نبينا الكريم ينطق عن الهوى، بل كان يترجم ما جاء به الوحي للبشرية، ولهذا كان يحظى بالمدد الربَّاني.

ولا ريب أن الدولة العثمانية كانت من الدول التي طبقت الإسلام بأبهى صورها بعد عصر الرسول والخلفاء الراشدين، فقد صنع العثمانيون حضارة عظيمة باتباعهم نهج نبي الله بصدق وإخلاص ومحبة.

ويشهد على عظمة العثمانيين الفيلسوفُ الإيطالي توماسو كامبانيلا الذي كان من الداعين لمدينة فاضلة في كتابه «مدينة الشمس»، إذ يرى العظمة والأبهة التي وصلت إليها الحضارة العثمانية مصدرًا للإلهام. وهذا

٢٠ لامارتين، تاريخ تركيا.



مثال واحد من الأمثلة الكثيرة التي تدل البشرية على حقيقة أن وصولها إلى الطمأنينة والسعادة لا تكون بالفلسفات البشرية التي من العسير تطبيقها في الحياة، بل بالإسلام الذي يحيط بجميع نواحي الحياة.





لو كان العقل كافيًا...

لا شك أن الله سبحانه وتعالى عليم بما عند عباده من مزايا وخصائص أكثر منهم أنفسهم، ويعلم عجز العقل وضعفه في الوصول إلى الحقيقة، من أجل هذا أرسل مذ خلق البشر زهاء ١٢٤ ألف نبي على حسب الروايات، وكان أعظم عون ومدد قدَّمه للناس حينما أنزل عليهم الصحفَ والكتب السماوية بواسطة الوحي. وهذا ما يُظهِر لنا أن العقل وحده لا يكفي في الوصول إلى الحق والخير وإلى الصواب والحقيقة. ولو كان العقل وسيلة كافية في هذا الشأن، لما أرسل الله تعالى الأنبياء ولما نزَّل الكتب لهداية البشر.

وللموت سكرات يجب على كل امرئ أن يذوقها مهما كان مقامه ومنصبه في الحياة، فما أشد ألم الأفئدة وحسرتها حينما تُطوى صفحات الحياة في سجل الموت.



وغاية أعداء الدين أن ينسى الإنسان «الموت» الذي يتموضع في الأذهان تموضع الأفعى السامة في جحرها. الموت الذي إن ذُكِر أو كان الحديث حول ما يعقبه من عالم مجهول وأهوال، يُصاب المرء بالخوف أشده والقلق أعظمه؛ ويقول هؤلاء الأعداء إن لم يكن عند المرء طاقة لنسيان الموت، فليُلقِه وراء ظهره، أو يدفنه في أعماق عقله الباطن، ووسيلتهم في ذلك كله مجموعة من المفاهيم والحيل الباطلة التي لا أساس لها. لذلك لا يمكن حل هذه العقدة المستقبلية التي لا يستطيع البشر إدراكها إلا بما جاء في الكتاب والسنة.

فالقرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يكشف أسرار رحلة الحياة الفانية، ويحل ألغازها، وينير ظلمتها؛ وهو الكتاب الذي يحتوي أدلة تبعث الطمأنينة في القلب والعقل معًا في كل مضمار.

ويدعونا الله سبحانه وتعالى في كثير من الآيات الكريمة إلى تأمل الحِكَم الموجودة في خلق الإنسان، وهذا النظام العجيب الذي يسير عليه الكون، وهذي المعجزة البيانية في القرآن الكريم. فمن أراد العيش



بصورة تليق بشرف الإنسان ونبله وموقعه، فعليه أن يغوص في عالم التفكر الذي حدَّد القرآنُ الكريمُ معالمَه.

إن الدوحة الباسقة في الأساس بذرةٌ صغيرةٌ لا تكاد تُرى، زُرِعت في تربة خصبة فصارت لها تلكم العظمة والهيبة، وكذلك تغدو حالنا عندما تكون أفكارنا وتخيلاتنا وأحاسيسنا في إطار القرآن الكريم، فتتقوى المشاعر القلبية وتتكشف الحقائق المثيرة المدهشة التي لا تعد ولا تحصى. ولولا القرآن الكريم بإرشاده وفيوضاته التي لا تنفد، لحُرِمت أفكارنا ومشاعرنا من الأرضية الخصبة، فغدت كالبذرة الجافة ترميها الرياح يمنة ويسرى.

لذلك لا نعمة أعظم وأكبر من إدراكنا عظمة الكرم الإلهي وسموه الذي يتحقق بفضل القرآن الكريم.

والحق أن المجتمعات لا تصل البتة إلى السلامة والسعادة الحقيقية بأفكار أولئك المتحذلقين الذين يرتكز علمهم على كتب الفلسفة المصفوفة على رفوف مهجورة في المكتبات؛ بل بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه، ثم بإرشاد أولئك المؤمنين الذين وصلوا إلى الكمال بإدراكهم الحِكم والحقائق الإلهية.



إن العقل الذي لا يخضع لتربية قائمة على الأسس التي وضعها الله سبحانه كالفرس الجموح لا تصل به إلى مبتغاك، لا بل يلقيك في الهاويات فتهلك. وكما أنه من الضروري ترويض الفرس وإلجامه للإفادة من قوتها، كذلك من الواجب جعل العقل «عقلًا سليمًا» بإخضاعه لتربية معنوية مستمدة من الكتاب والسنة.

وتدعي المدارس الفلسفية أنها قادرة على فهم الحقيقة دون إرشاد وتبليغ الأنبياء الذين أيَّدهم المولى سبحانه وتعالى من عنده. غير أن الصواب أن أعظم الحقائق وكبرى اليقينيات محال إدراكها دون وجود هؤلاء الأنبياء الذين اختارهم الله من بين عباده وأكرمهم بالنبوة.

ويبيِّن مولانا جلال الدين الرومي هذه الحقيقة في قوله:

«وحتى عقل الطفل يقول: (فلتكن عاكفًا على الكتاب)، لكن من المحال أن يتعلم الطفل شيئًا من الكتاب وحده.

ويدفع عقل المريض صاحبه إلى الطبيب، ويحمله إليه، لكن لا يمكن أن يكون العقل دواءً.



فلو كان كل ثرثار مهذار قادرًا على الوصول إلى كرم الله ذي الجلال، فهل كان المولى ليرسل هؤلاء الأنبياء كلهم؟»

إن الأنبياء أعظم نعمة أنعمها الله على البشرية جمعاء، والعلم اليسير الذي قدَّمه الأنبياء عن صفات الله وذاته دون أي مقابل دنيوي ما كان الناس ليصلوا إليه بالأفكار والأبحاث الفلسفية، أو بالمشاهدات والتجارب، أو بتطهير الذات، ولو مكثوا آلاف السنين سعيًا وراء ذلك العلم.

ويقول الإمام الرباني في هذا:

«إن الأنبياء رحمات للعالمين أخبر الحق سبحانه وتعالى بواسطة بعثة هؤلاء الأكابر عن ذاته وصفاته لأمثالنا ناقصي العقول وقاصري الإدراك، وأطلعنا على كمالاته الذاتية والصفاتية بمقياس أفهامنا، وفرَّق مراضيه عن غير مراضيه، وميز منافعنا الدنيوية والأخروية عن مضارنا، فلو لم يكن توسط وجودهم الشريف لكانت العقول البشرية عاجزة في إثبات الصانع تعالى وقاصرة في إدراك كمالاته تعالى».

والمحير في هذا الشأن أن الرغبة الجامحة في الوصول إلى الحقيقة، وكشف الغموض، وحب الاستطلاع، رغبةٌ فطريةٌ مركوزةٌ في الجِبِلَّة الإنسانية، وربما كانت هذه الرغبة السببَ في حيرة الفلاسفة وتعدد المناهج والمدارس الفلسفية، وأما السبب الآخر في قصور تلك الفلسفات والتيارات الفكرية كلها فهو اعتمادها على العقل فقط؛ هذا العقل الذي يبذل أقصى طاقاته وجلَّها، ويستنفدها في حل مشكلات الفلسفة، ومسائل ما وراء الطبيعة، لكنه في النهاية يعلن عجزه واستسلامه.

وقد ذكرنا فيما سلف أن كل نبي كان يؤيد ما جاء به الأنبياء قبله، فهُم جميعًا يتلقون ما لديهم من المنبع الإلهي نفسه، وأما الفلاسفة الذين يعدون العقل أساسًا لهم، فترى أن كل فيلسوف يأتي بمنهج جديد وفلسفة جديدة، فلا يستطيع أن يجد الإجابات المطلوبة، بل لا يقدر إلا على نقد الإجابات السابقة التي اقترحتها الفلسفات التي أتت قبله ونقضها.

وكانت علة كل ذلك التيه الذي يعيشه الإنسان في فلسفته إنما هي عدم إيمانه، فلا دِين يجعله يدرك الحقائق الكبرى واليقينيات العظمى، ولا إيمان يهدي



قلبه وفكره، ويروي ظمأه، إنما الموجود عقل فقط، عقل بلا هدى ولا هداية.

والحق أن العلم الذي يضعه العقل بين أيدينا لا يمكن أن يكون البتة خاليًا من الشبهات والأخطاء والنواقص. فالعقل يبقى أسيرًا لما تمليه عليه القناعات، قناعات تستند إلى أفكار مقولبة جاهزة، وأوامر من الوسط المحيط إيجابية كانت أم سلبية. ولا يستطيع العقل أن ينجو من الضعف الناتج عن الحرص والغضب والهوس، ولا من عيوبه مثل النسيان والسهو والخطأ. فكثير من الأحكام التي يصل إليها تكون نتيجة الاعتماد على الظاهر دون سبر الباطن. وهذا يعني أن العقل ليس مصدرًا خاليًا من الخطأ عند سعيه للوصول إلى العلم والمعرفة.





من الحوادث المشهورة التي تُظهِر ضعف العقل حادثة جرت أيام الإغريق. إذ أراد أحد الشبان أن يطلب العلم، فأتى جورجياس وكان أحد أشهر الفلاسفة السفسطائيين آنذاك. واتفقا على أن يدفع الطالب نصف الأجرة، أما النصف الآخر فيدفعه إن ربح أول قضية، أي حينما يُكمل تعليمه، فيكون من حق الأستاذ حينها أن يأخذ النصف الآخر.

ومرت الأيام، وصار الطالب سفسطائيًّا كبيرًا. غير أنه رأى النصف الأول من المبلغ كافيًا، فأبى دفع النصف الآخر، فكانت قضيته الأولى مع أستاذه.

ومَثُلا أمام هيئة القضاة، فقال الطالب:

«إنني لن أدفع شيئًا سواء أربحت القضية أم خسرتها»، فسأله القاضي: «ولِمَ؟»



فأجاب: «إن حكمت لي بربح القضية فلن أدفع شيئًا؛ وكذلك إن خسرتها، لأننا اتفقنا على عدم دفع المبلغ إن خسرت أول قضية».

ثم قال الأستاذ الفيلسوف:

«إنني سآخذ المبلغ سواء أربحت القضية أم خسرتها».

فسأله القاضي: «ولمَ؟»

فأجاب الأستاذ:

«إن حكمت لي بربح القضية، فسآخذ المبلغ؛ وإن خسرتها، فإن تلميذي سيربح القضية، وعليه فإن شرط دفع النصف الآخر سيتحقق».[٢١]

نرى في هذه الحادثة أن كلا الادعاءَين لا يخلوان من المنطق والعقلانية، وهذا يعني أن العقل قد يسجن نفسه أحيانًا داخل الجُدر التي أقامها، فيدخل متاهات تضيِّعه. ومثال آخر على ذلك، عندما يُعلِّق أحدهم لوحة تقول: «تعليق الإعلانات ممنوع هنا». عندها يناقض المرء نفسه لأنه هو نفسه قد علَّق إعلانًا.

---

٢١ انظر: رؤية الإسلام للحياة، ص٢٦٧-٢٦٨؛ التفكير الغربي والتصوف الإسلامي، ص٢٢-٢٣.

فإذا كان هذا العقل يسجن نفسه ويعجز عن حل كثير من الخلافات البشرية، فكيف له أن يدرك الحقائق الإلهية اللامتناهية بكل أبعادها؟ وإذا كان هذا حالُ الإنسان في مسائل دنيوية، فكيف سيكون حاله في المسائل الأخروية والسماوية والروحية والدينية، مسائل كثيرة لن يجدها ولن يدركها دون عون إلهي؟ فالمصير إذًا هو العجز والضعف والنقصان...

من أجل ذلك كله، نجد أن سلامة العقل من المآزق والمخاطر بتربيته عن طريق القرآن وإدراكه ضرورة التسليم بالقلب أمام الحقائق التي تتجاوز حدود العقل.



تستند آراء الفلاسفة الماديين الذين يرفضون حقائق الدين المجردة إلى «الوضعية». وهذه الفلسفة الوضعية لا تقبل إلا الحواس الخمس مصدرًا للمعرفة في سعيها للوصول إلى الحقيقة.

وترى هذه الفلسفة أن لا وجود للشيء ما لم يمكن مشاهدته بأعضاء الحواس في التجارب المخبرية. فالحقيقة لدى أصحاب هذا المذهب منحصرة في ما تثبته التجارب وتدركه الحواس الخمس. وتعد هذه الفلسفة الوضعية من ألد أعداء الإسلام لأنه دين يأمر بالإيمان بـ «الغيب» ويؤكد عجز الحواس الخمس عن الإدراك التام.

وتعتمد الوضعية على مبدأين متناقضين في ذاتهما، هما: «الكُليَّة» و«الضرورة».

فأما مبدأ الكلية فنستطيع التعريف به كما يلي:



إن نظرنا إلى خاصية من خاصيات إحدى الكائنات الطبيعية، فسنجد أنها كلية في الكون. فلو عرَّضنا مثلًا ماءً صافيًا للحرارة في إحدى المخابر تحت ضغط جوي طبيعي، فسيتبخر حينما يصل إلى درجة حرارة معينة. وقد وضع العلماء الرقم ١٠٠ وجعلوه درجة تبخر الماء، وقالوا إن الماء كله يتبخر حينما يصل إلى درجة حرارة محددة. فالحقائق الفيزيائية الأخرى كلها تتحقق على هذا النحو عند الوضعيين.

وإن تفكرنا في الأمر، وجدنا أننا نستطيع إجراء التجربة على مقدار معين من الماء في المختبر، لكن ستبقى كميات من الماء لا يقيسها مقياس خارج نطاق التجربة، إذ لا مجال لإخضاع كل المياه في هذه الأرض للتجربة. ومع ذلك كله يقول الوضعيون: «يتبخر الماء في درجة ١٠٠». وهذا هو التناقض عينه، فهم لا يقبلون صحة الحكم ما لم تُثبته التجربة، وحينما تسألهم: «كيف لكم أن تضعوا هذه القاعدة ولما يخضع مياه الكون كلها للتجربة؟» يجيبونك بقولهم:

«لأنه من المحال أن نجري التجربة عليها كله، بل نستطيع تعميم هذه الحقيقة بالعودة إلى المخبر، حينما



نرى أن المياه كلها تخضع للحقيقة نفسها بعد التجربة على مقدار معيَّن منها».

فهذا هو جوابهم مع أن قبول الحقائق الدينية على ذاك النحو تمامًا، فحينما يرى أتباع الدين مطابقة الأوامر الدينية التي تُدرك بالحواس الخمس (أي التي يمكن مشاهدتها) للعقل، يؤمنون بصحة المسائل الأخرى التي لا يصل إليها العقل.

فالإنسان الذي يرى الحوادث الكثيرة المتعلقة بخلق الله المخلوقات بقدرته المطلقة، لن يجد صعوبة في فهم قدرته سبحانه وتعالى على إحياء الكائنات كلها بعد موتها.

والإنسان الذي يشاهد أن الله سبحانه وتعالى لا يُهمل أي مخلوق من مخلوقاته، بل يعطي كلًّا رزقه، فسيُدرك قدرته ﷻ على حشرهم يوم الحساب. وسيقبل الحقائق التي لا تُشاهد ويصدِّقها، انطلاقًا من تلك التي يمكن مشاهدتها.

ويرى الفلاسفة الوضعيون هذا القياس طبيعيًّا ويقبلونه لأنفسهم، ولكن حينما يستخدمه أرباب الدين، يهاجمونهم ويعدونه قياسًا بعيدًا عن العقلانية، فيرفضون حقائق ما وراء الطبيعة كلها، وحينها يُوقِعُون أنفسهم في



التناقضات، ويقحمونها في المتاهات. وهذا التناقض نقطةُ الضعف المشتركة لدى المذاهب الفلسفية كلها عندما تنبري لمنافسة فكرة الإيمان بالله تعالى. ويوضِّح الإمام الرباني هذا التناقض الذي ينجرُّ إليه الفلاسفة أمام الحقائق الإلهية في قوله:

«وهذه الجماعة صرفوا أعمارهم في تعليم آلة عاصمة للذهن (علم المنطق) عن الخطأ الفكري وتعلمه، ودققوا فيها تدقيقات كثيرة. ولما بلغوا المقصد الأقصى، يعني مسائل الذات والصفات والأفعال الواجبية جلَّ سلطانه، ضيعوا حواسهم، وأضاعوا الآلة العاصمة، وخبطوا خبط عشواء، وبقوا في تيه الضلالة كمن يهيء آلات الحرب سنين، ثم إذا جاء وقت الحرب يضيع حواسه ولا يستعمل الآلة».[٢٢]

وأما المبدأ الآخر في الفكر الوضعي فهو: «الضرورة». فالفلاسفة الوضعيون حينما يعجزون عن توضيح خصائص المواد والفروق بينها بالتجارب، يقبلون وجودها مستندين إلى فكرة «الضرورة».

---

٢٢ المكتوبات، جـ٣، مكتوب رقم ٢٣.



ومن أعظم تناقضات الفلسفة الوضعية وأجلها شأنًا أنها تتبنى مسبقًا وجود الخصائص الفطرية لدى المخلوقات، مع أنها ترى وجوب إثبات كل حُكم بالتجربة.[٢٣]

ومثال ذلك أن الفلاسفة الوضعيون يكتفون بإثبات الاختلاف في درجة تبخر المواد المتنوعة، أو في ثقلها النوعي، أو ردود أفعالها على المؤثرات الخارجية، لكنهم لا يبحثون عن أسباب الاختلاف، ذلك لأن معرفة الحكمة من الخلق لا تنصبُّ في اهتمامهم، ولا تقع في مضمار تفكرهم.

غير أن الإسلام يوضِّح هذه الأمور والخصائص بحكمة إلهية توافق الغاية من خلق المخلوقات كلها. فالقرآن الكريم يأمر كل مؤمن متفكر في هذا الكون بأن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. أي يأمره بأن يشاهد تجلياَت أسماء الله وصفاته وقدراته الظاهرة في هذا الكون الفسيح، ثم ينتقلَ بعقله وقلبه من الأثر إلى المؤثر، ومن الإبداع إلى المبدع، ومن المخلوق

٢٣ انظر: رؤية الإسلام للحياة، ص٤٦، ٢٦٩.



إلى الخالق. ويعلِّمه النظر إلى الكون لا من أجل الكون نفسه، بل من أجل خالق هذا الكون.

أما الفلسفة المادية فتنظرُ إلى المخلوقات من أجل المخلوقات نفسها، أي تتجاهل خالقها، وتهتم بالمادة فقط. وترى الإبداع ولا تبغي رؤية المبدع، وتشاهد الأثر ولكنها تتجنب التفكير في المؤثِّر. وهذا مثال واضح جلي يبيِّن العيبَ في رؤية الفلسفة المادية للكون وعقمٍ في فكرها أمام سعة رؤية الإسلام وعمقها وكمالها.

ويرى الإسلام أن الله سبحانه وتعالى فرد صمد مطلق واجب الوجود، وكل مخلوق في الكون مدين بوجوده لله سبحانه، فالإنسان مخلوق مقيَّد، لا مُطلق.

أما الفلسفات التي تدَّعي وصولها للحقيقة دون الاستناد إلى الدين فترى الإنسانَ مركز الكون، والحقيقة المطلقة، وتجعل المخلوقات الأخرى تابعة له. لا بل تزعم أن الكون كله يدور حول الإنسان، وتحرضه كي يكون أنانيًّا متغطرسًا مثل فِرعون وعاتيًا متكبِّرًا مثل نمرود، فيقع في الشقاء ويذمُّه المولى عز وجل حينما قال:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]



وتود هذي الفلسفات لو أنها تسدل الستار على عيوب الإنسان الموجودة في فطرته البشرية مثل الخطأ، والنسيان، والعجز، والضعف، والحاجة، والفناء؛ فتجعله ينسى أنه «عبد» في نهاية المطاف. لا بل تعزو نِعم الدنيا التي وهبها الله ﷿ إلى الطبيعة والمصادفة- وما أشد سذاجة هذه الفكرة- وهي بذلك تسعى لإغلاق باب العبودية والشكر للمولى جل وعلا. ولا يخفى على أحد أن هذه الأمور إنما هي الغاية الكبرى للشيطان الذي يُعدُّ أعتى عدو للإنسان.

إن الفلسفة الوضعية أساس الأفكار التي تحارب الدين، وقد تشعَّبت هذه الفلسفة لتشمل مجالات الحياة كلها، فوُضِعت نظريات متنوعة تحارب الإسلام، نحوَ الاشتراكية في الحياة الاقتصادية، والفرويدية في الميول الجنسية، وما إلى ذلك من نظريات أخرى. نظريات كلها مرفوضة في الأساس لأن الفلسفة التي تستند إليها يعوزها مصدر يوصلها إلى الحقيقة، فعداوتهم للإسلام شيء غير منطقي ومناقض لحالهم.



«يجب على كل من يرى أن للعقل قوة لا حدود لها أن يقبل لزوم خلو صاحب العقل من كل جرم. فإذا كان العقل وسيلة الوصول إلى الحقيقة والصواب، فلمَ يرتكب العاقل السليم جرمًا؟ ولمَ يقارف السيئات؟ وترى النظم البشرية كلها تفرض العقاب على المجرم مع أنها تقبل وجود العقل، وتعفيه من العقاب إن اقتنعت أن قدرته العقلية لم تكن في محلِّها أثناء ارتكاب الجرم.

وهذا يعني أن الأساس المنطقي في العقاب هو أن يكون مرتكب الجرم ذا عقل سليم. عندها يبرز أمامنا تناقض بين الاعتقاد بأن العقل وسيلة كافية للوصول إلى الخير، وفرض العقاب على مرتكب الجرم إن كان عاقلًا. فيتأتينا الحل والمخرج من الإسلام البعيد عن هذا التناقض، لأنه يرى أن العقل لازم ولكنه غير كاف».[٢٤]

---

٢٤ انظر: رؤية الإسلام للحياة، ص٣٦.



فالعقل سلاح ذو حدين، قد يكون وسيلة للخير أو الشر، وبهِ قد يرتكب المرء جرمًا أو يعمل صالحًا. والعبد لا يبلغ أسمى درجات الروحانية بلا عون العقل، لكن العقل أيضًا هو من يوقِعه في أسفل سافلين ويجعله كالأنعام بل أضل.[٢٥]



٢٥ انظر: الأعراف: ١٧٩؛ الفرقان: ٤٤.



لقد أثبت الفلاسفة بعض الحقائق بالعقل، فوضعوا نظمًا بناءً عليها، ولكن ضرر هذه النظم كان أكثر من نفعها. ومن الأخطاء التي وقعوا فيها هو سعيهم لإيضاح حقيقة الإنسان مستندين إلى ميل واحد، ومبالغتهم في أهمية الحقيقة التي أثبتوها حول واقع الإنسان أو تعميمها ورؤيتها الميلَ الوحيد الذي ترتبط بها الميول الأخرى كلها. وهذا ما يطلق عليه اسم نظرية «الواحدية».

فاليهودي سينغموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) رأى أن حياة الإنسان بسيطة كحياة الحيوان في الغابة ودنيئة خسيسة في أغلبها، لذلك جعل أخلاق الإنسان قائمة على السفاهة والرذالة بجعله الحقائق الكثيرة المعقدة حقائق بسيطة. فقد وضع ميل الإنسان لإشباعه رغبته الجنسية في مقدمة أولوياته، ثم فسَّر سلوك الإنسان كله



على هذه الفرضية، وجعل «الليبدو»[٢٦] السبب الأساسي للحوادث التي يمر بها الإنسان.

نعم، إن هذا الميل فطري، وله تأثير معين في السلوك. لكن الخطأ الذي ارتكبه فرويد أنه جعل هذا الميل شاملًا لمناحي الحياة، و عدَّه السببَ الأساسي للسلوك كله. ويشبه موقفه من هذا الميل النظرَ إلى شيء صغير بعدسة مكبِّرة، حيث إنك لن تجد شيئًا سواه، وستراه أكبر وأعظم من حجمه الطبيعي.

وهذه إحدى نقاط الاختلاف بين العقلانية الإسلامية وعقلانية الفلسفة الغربية، فالأخيرة تبسِّط الحقائق الكبرى ذات الأبعاد الكثيرة، وتعظِّم كل اكتشاف بسيط، فلا تنجو في نهاية المطاف من الأخطاء والتناقضات.

أما العقلانية في الإسلام فعقلانية ترى الجزء داخل الكل، وتنتقل من الكل إلى الأجزاء، وتنظر إلى الأجزاء نظرة شاملة، وهي عقلانية قائمة على مبدأ التوحيد الذي تأخذ به دائمًا.

---

٢٦ الليبدو في مذهب فرويد هو السلوك الممتع للوصول إلى إثارة الغرائز الطبيعية.

والإسلام يعترف بوجود الميول الجنسية لدى الإنسان ولا ينكرها، لكنه ينظمها خير تنظيم لأنه يراها نعمة من الله تعالى كي يدوم النسل البشري، ويجعلها مشروعة في إطار الزواجِ، وينهى عن كل ما يخرج عن هذا الإطار بناءً على حِكَم كثيرة.

وأما المادِّيون أمثال كارل ماركس وداروين وغيرهم، فيرون أن الإنسان كائن بيولوجي لا أكثر، وينكرون عالمه الروحاني، ذلك لأنهم محرومون من إرشاد الوحي الإلهي الذي لم تحرِّفه اليد البشرية، فكانت النتيجة أن عاش ملايين الناس في ضيق روحاني وبؤس اجتماعي. ولم يستطع مناصرو المثالية الشيوعية الذين أرادوا تطبيقها على مدى القرن العشرين أن يقدموا شيئًا لأولئك الذين كانوا تحت حكمهم، بل جعلوهم من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

فكارل ماركس وضع الاقتصاد في مقدمة أولوياته، وجعل يفسر الحياة والحوادث على هذا الأساس، فكان من الذين أخذوا الجزء وأهملوا الباقي. والعقل إن صار محرومًا من إرشاد الوحي، لا يكون الميزان قائمًا بالقسط، فما الذي يحدث حينها؟ حينها تجد



الليبراليين، الذين يرون الحياة اقتصادًا فحسب، غير مهتمين بمشروعية ربحهم، وترى الرأسمالية تجعل من الإنسان مُسنَّنةً في آلة كبيرة وظيفتها تأمين المصلحة الاقتصادية، دون أن تشعر بأولئك الذين يُسحَقون بين هذه المسنَّنات. وأما الشيوعيون والاشتراكيون فحدِّث ولا حرج، فأولئك يضيِّعون حياتهم في صراع لمعرفة من هو صاحب الملك الحقيقي.

إن هذه الأنظمة البشرية وأضرابها تفتقر إلى الجانب المعنوي، فلا رحمة فيها، ولا عدل، ولا وجدان، ولا إدراك...

أما الإسلام فيرى حاجات الإنسان المادية جزءًا من واقعه، ويولي اهتمامًا بها ضمن الإطار الصحيح. وينظِّم الواقع تنظيمًا قائمًا على هدي القرآن، فيبيِّن أفضل شكل لراحة الإنسان وسعادته، ويضع أمامه طرق الكسب الحلال المشروع.

وقد أخبرنا الإسلام أن الملك لله سبحانه وتعالى، لا للفرد ولا للمجتمع؛ وأن المسلم مؤتمن على ملك الله تعالى إلى حين، وأن ما في الدنيا سيبقى فيها، أما نحن



فسننتقل إلى الحياة الأبدية بأعمالنا بعد أن نخضع لهذا الامتحان الدنيوي.

وجعل الإسلامُ الفردَ مسؤولًا عن المجتمع، فمن المبادئ والأوامر النبوية:

«ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه»[٢٧]

«ومن لم يهتم للمسلمين عامة فليس منهم»[٢٨]

وبمثل هذَين المبدأَين جعل النبي ﷺ المسلمين متعاضدين، فتحققت العدالة الاجتماعية والتضامن بين أفراد المجتمع. وأثمر تطبيق هذه المبادئ خير إثمار في خلافة عمر بن عبد العزيز، إذ كانوا يبحثون عن فقراء في المجتمع كي يدفعوا لهم الزكاة فلا يجدون.

وعلى ذلك المنوال الإسلامي سار العثمانيون حينما بنوا سلسلة من الأوقاف تجاوز عددها ستة وعشرين ألفًا، كانت تنشر الرحمة في المجتمع، فما بقي سائل أو شاكٍ أو مريض إلا ووجد طلبه فيها. وانعدمت مشاعر

٢٧ الحاكم، جـ٢، ١٥.
٢٨ الحاكم، جـ٤، ٣٥٢؛ الهيثمي، جـ١، ٨٧.



الحقد والحسد والخصومة لدى الفقراء تجاه الأغنياء، فعمَّ الأمن والأمان والسكينة في المجتمع.

وهكذا نجد أن الإسلام ينظِّم الاقتصاد كما ينظم كل أمر في حياة الإنسان، فيجعله اقتصادًا كاملًا ليكون وسيلة لسعادة الفرد والمجتمع في الدارَين.

فالحقائق التي يمكن للمسلم أن يقول عنها إنها حقائق «عقلية» إنما هي تلك التي تأتي موافقة للأحكام الإلهية، وتكون عميقة كاملة بأن تضع الدنيا والآخرة كليهما أمام نظر المرء.

فالمسلم يذكر دائمًا خالقه المتعالي سبحانه الذي أوجد المخلوقات من عدم ووهبها الحياة ولا ينساه، يذكره بقلبه ويتفكر في خلقه، ويجد الطمأنينة في قلبه حينما يأمل الوصال مع الله سبحانه في الآخرة. لذلك فإن الفلسفات التي هي نتاج العقل البشري لا تمنح الإنسان أي طمأنينة أو سكينة أو سعادة.

ولهذا لا يرى الإسلام أي عقلانية في كثير من الأفعال والأفكار التي تراها العقلانية الغربية منطقية حقيقية، فهذا الدين العظيم لا يجد عقلانية البتة عندما ينزلق المرء إلى



الكفر باستعمال خاطئ للعقل، أو يستخف بالأوامر الدينية، أو يجعل أي فعل منافٍ للأخلاق فعلًا مشروعًا، لأن العقل عقلٌ ما دام خاضعًا مذعنًا للحقيقة المطلقة.

ويبيِّن الشاعر فضولي ضعف العقل الذي يسير على هواه، ما لم يخضع للحقائق الإلهية بقوله:

أَطلبُ من العقل الدلالة

فلا يأخذني إلا إلى الضلالة

وليس العقل وحده المحدد لسلوك الإنسان وأحواله، فالإنسان يتخذ قرارات في حياته انطلاقًا من أحاسيسه أكثر من عقله. لذلك إن أراد المرء بلوغ الحق والخير، فلا مناص من إيصال القلب الذي يعد مركز الأحاسيس إلى نضج معنوي وتربيته بالحقائق الإلهية، لا الاكتفاء بالعقل مركز الأفكار. وهذا ما يُوجِب تطهيرًا للقلب، وتزكيةً للنفس، وتربيةً معنوية تضمن توجيه الأحاسيس والأفكار والسلوك نحو الحقائق الإلهية.

وإلا فلن ينجو الإنسان من المصائب المفاجئة والفواجع المباغتة التي تجره إليها ملكَاته العقلية وميوله القلبية ما لم تخضع لتربية معنوية، فتراه يقضي عمره في



غفلة ظانًّا أن شقاءه سعادة، وهيهات أن يغدو الشقاء يومًا سعادة، وتجده يرى نفسه خاليًا من الأخطاء، وهو واقع في مستنقع منها. ولا يؤنبه ضميره ولو لهُنيهَة مع أنه ارتكب من الكبائر أعظمها، وقارف من الموبقات أجلَّها. فيغدو أحمقَ أعمى القلب يرى حاله طبيعية، مع أنه اعتدى وظلم ظلمًا يهتز له عرش الرحمن.





أي عقل نخدم؟

إذا تصفَّحنا التاريخ فسنجد أن كثيرًا من الظالمين الذين كانوا يظنون أنفسهم أصحاب عقول نيرة جبارة، لم يشعروا بأدنى قلق أو وجل مما ارتكبوه من ظلم، لأنهم كانوا يرونه سلوكًا لا ينفك عن العقلانية.

ولنضرب هنا بعضًا من الأمثلة في هذا الموضوع:

لقد كان الآباء في مكة أيام الجاهلية يئدون بناتهم دون رحمة بالأمهات اللواتي كنَّ يُطلِقْن صيحات تفتك القلوب، لكنها كانت تبقى حبيسة بين الشفتين. وكان السيد آنذاك إن عذَّب عبده أو حتى ذبحه، لا يحرِّك ساكنًا ولا يحس بأي ندامة. إذ كان قطع رقبة العبد وقطع الحطب سيَّانًا في إدراكهم العقلي، لا بل كانوا يرون أعمالهم الوحشية كلها حقوقًا طبيعية مشروعة لهم.

وأما إمبراطور الهون أتيلَّا، فقد جاس خلال الديار، وقطع مسافة سبعة آلاف كيلومتر منطلقًا من صحارى



كاراكوم في آسيا الوسطى حتى وصل وسط أوربا وحلَّ في روما، ولم يترك بعد اجتياحه هذه البلاد سوى الدماء والدموع والفوضى.

وحينما دخل هولاكو عاصمة الحضارات بغداد، أغرق في دجلة أربعمِئة ألف مسلم بريء. وكان قائدًا متوحشًا مليء الصدر بالحقد والكره، فأمر بإلقاء الآلاف من المؤلفات التي استغرق كتابة كل واحد منها شهورًا في ماء دجلة، فظلَّ ماء ذاك النهر العظيم أيامًا بلون الدم والحبر. ولم يشعر هذا الظالم بأدنى عذاب ضمير بعد أن اقترف ما اقترفه من ظلم.

وعلى درب هؤلاء سار الإسكندر في حربه منطلقًا من مقدونيا إلى الهند، وكذلك فعل جينكيزخان وتيمورلنك في سطوتهما العسكرية. فما خلَّف هؤلاء وراءهم غير الظلم، وأرضًا اختلط ترابها بدماء الأبرياء المظلومين ودموعهم.

وإن قلَّبنا صفحات التاريخ القريب، وتوجهت أعيننا تلقاء الشيوعية، ذلك النظام البشري الذي بُني على أجساد زهاء عشرين مليون إنسان، فماذا سنجد؟ لن نجد



أكثر من نتيجة من نتائج أفعال ذلك العقل المتوحش. وإن نظرنا إليها بعين الحق والحقيقة، ألن نصل إلى حقيقة أن ذلك النظام وأضرابه ليس إلا لوحة تصوِّر لنا مقدار الوحشية التي فاقت وحشية أشد الضباع شراسة وفتكًا؟

وحتى لو رأى أتباع هذه الأنظمة أفعالَهم الوحشية، التي هي وصمة عار على جبين البشرية، نجاحاتٍ عظيمة بمقياس عقولهم، فالتاريخ سيسجِّل أن هذه الأفعال ظلم عظيم ناتج عن حرصهم على الدنيا وشهواتهم المتأججة.

وقد يكون مثل هؤلاء الظَّلَمة دهاةً أصحاب عقول ودراية، لكنهم جعلوا قدراتهم وطاقاتهم كلها أدوات للشر، لأنهم حُرِموا من إرشاد الوحي، وما زَكَّوا أنفسهم ولا طهَّروا قلوبهم فعميت أبصارهم وأفئدتهم، وحُجبت عنهم الرأفة والرحمة والشفقة. وكل فعل وحشي يصدر عنهم وليس من شرف الإنسان ونبله، أظْهَرته عقولهم الصغيرة فعلًا طبيعيًّا وضروريًّا.

إن كل مستبد ظالم في التاريخ كان يجد نفسه دائمًا محقًّا فيما يفعل، ويرى الخطأ في غيره. وأوضح مثال



ما يحدث اليوم في سوريا ومصر وبلدان أخرى من ظلم وجرائم ومجازر يندى لها الجبين. فهؤلاء الظَّلَمة العتاة يظنون أن أفاعيلهم عينَ الصواب والعقلانية، وذلك لأنهم حجبوا عقولهم عن الحقائق الإلهية. وكانت النتيجة أنهم حطَّموا صرح الإنسانية، وساقوا أنفسهم إلى حماقة وغفلة ما بعدها غفلة، فحقَّ عليهم عذاب ربهم في الآخرة استجابة لدعوة الملايين من المظلومين.

ولا ريب أننا نصادف مثل هؤلاء في كل حقبة من الحقب. فحينما كُلِّف فقيه الإسلام وإمامه الأعظم أبو حنيفة بمنصب قاضي بغداد- المنصب الذي كان آنذاك بعد منصب الخلافة من حيث العلو- رفضه لأنه كان يعلم يقينًا أن هذا المنصب سيغدو أداة لتحريف الفتاوى كي تكون كما يهوى ولاة الأمر، فيكون سببًا في ظلم الأبرياء. ولم تدرك عقولهم الحكمة من رفضه المنصب وعدم خضوعه لهم، فألقوا هذا العالم الفذ في السجن وأمروا بجلده. فرجَّح الإمام الأعظم الحكم بالجلد والسجن على تحريف أحكام الدين.

إن هذه العقول وأمثالها التي وقعت أسيرة الشهوات الدنيوية والنفسانية تُساق إلى حماقة لا تستطيع عندها



أن ترى أخطاءها، ومهما بلغت من العِظم، فلن تنجو من الوقوع في الخطأ وارتكاب الظلم الذي سيغدو ظلمات يوم الحساب.

وأولئك الظالمون الذين لم يجدوا بأسًا في ظلم الإمام الأعظم صاروا إلى مزبلة التاريخ، لا بل نُسيَت أسماؤهم. أما الإمام أبو حنيفة فهو إلى يومنا هذا الإمام الأعظم لأهل السنة والجماعة، يحيا ذكره في الأفئدة، ويدعو له كل من جاء بعده بالخير.





يشهد التاريخ أن الذين حبسوا أنفسهم داخل حدود عقولهم الضيقة مثل فرعون، ونمرود، وأتيلَّا، والإسكندر، وهولاكو، قد باتوا أعداء البشرية جمعاء نتيجة أفعالهم. وأما أولياء الله مثل مولانا جلال الدين الرومي وأمثاله من الذين نالوا «العقل السليم» بأن غمرتهم فيوضات القرآن والسنة، ووصلوا إلى منبع المحبة الإلهية، فقد غدوا وسيلة لنشر الطمأنينة والرحمة بين الناس طوال حياتهم، وحتى بعد أن أدركهم الموت.

والحق أن أولياء الله سيلقون المحبة إلى الأبد، فهذا مولانا جلال الدين الرومي يحيا ذكره في الأفئدة مذ سبعة قرون. ولا يخفى على أحد أن كتابه المثنوي وبعض كتب المتصوفة من أكثر الكتب انتشارًا في قارتي أمريكا وأوروبا هذه الأيام بين تلك الكتب التي تتحدث



عن روح الإنسان. ومن الأمور التي تجذب انتباهنا وتلفت أنظارنا هو إعلان اليونسكو عام ٢٠٠٧ «عامَ مولانا»، العام الذي يوافق ذكرى مرور ٨٠٠ عام على ولادته.

ولمولانا جلال الدين مقام عالٍ ومكانة سامية لدى أولئك الذين يرون الإنسان من منطلق إنسانيته ورفعة شأنه في الغرب، ذلك لأن مولانا في كثير من مؤلفاته كان يستند إلى مبادئ الإسلام المأخوذة من القرآن والسنة، ولا ريب أن كل ما ورد في هذين المصدرين يرى الإنسان أشرف المخلوقات.

وهذا يعني أن رسالة الإرشاد المسماة بـ «المثنوي» التي كتبها مولانا مخلصًا بالقلب قبل قرون مضت والتي خاطب بها الناس كلهم، تنعكسُ على أيامنا هذه في كل مكان، وتثير فينا المشاعر الجياشة. فذلكم الكتاب يضع أمام الإنسان مرآة يرى من خلالها سرائره وخفاياه، فيعرِّفه نفسه، ويعينه في حل مشكلاته. وهو الكتاب الذي يوصل الأرواح التي ضاقت تحت نير السلطة المادية في عصرنا هذا إلى السعادة والطمأنينة والسكينة، لا بل فوق ذلك كله، هو وسيلة من وسائل الهداية. فحتى



لو صعد الإنسان ذروة الرفاه والفخفخة المادية، وحتى لو مَلكَ الدنيا كلها، فلن يستطيع أن يملأ ذلك الفراغ الذي يتركه الحرمان من الحكمة في روحه.

ويشير مولانا جلال الدين إلى الحقيقة التي توصل الإنسان إلى السعادة بقوله:

«واعلم أن الأفكار الفلسفية التي تلد من الطبيعة والخيال ليست الحكمة التي تلد من فيوضات نور الله صاحب الجلال والكمال. ففلسفتك الدنيوية لا تزيدك سوى ظنًّا وريبًا.

واعلم أن حكمة الدين إنما هي التي تطير بالإنسان إلى الآفاق، وتسمو به إلى الدرجات العليا.

ويا أسفاه حينما رأى فلاسفة آخر الزمان علماءَ السوء أرفعَ درجة من السابقين، وكان جلُّ سعيهم وراء أمور تُدهِش العقول. وهم الذين أضاعوا الكسب الحقيقي والربح المعنوي الذي يحتوي الصبر، والعفو، والمسامحة، والكرم».



يدَّعي الفلاسفة قدرتهم على الوصول إلى الحقيقة بأحاسيسهم وعقولهم المحدودة والمعلولة بضروب الضعف والعجز، ولكنهم بهذه الوسائل لم يشبعوا شغف الآخرين ولا أقنعوهم، بل ظلوا في شك من أمرهم يعمهون.

وأما علماء الكلام فمعَ أنهم كانوا في إطار القرآن والسنة، غير أنهم لجؤوا إلى المحاكمات والمقايسات القائمة على مبادئ العقل الضرورية. وجعلوا العقل وسيلة أساسية في منهجهم، فقدموا النفع والفائدة في الأمور التي تقع ضمن صلاحية العقل فحسب، وحُرِموا مما يُشبِع الأرواح في كل ما يقع خارج نطاق صلاحيته.

وأما المتصوفة الحقيقيون الذين يسيرون على منهاج الكتاب والسنة، فأولئك لا يقفون عند الحدود التي تنفد



فيها طاقة العقل، بل يخترقون هاتيك الحدود ويكملون الطريق بتسليم قلبي. وبهذا التسليم يبلغون آفاق الحكمة، فتتجلى عليهم معرفة الله سبحانه وتعالى. إذ إن الروح يصل إلى السعادة الحقيقية بمقدار اطلاعه على الحكم.

ويشير سيدنا علي رضي الله عنه إلى هذه الحقيقة بقوله:

«روِّحوا القلوب، واطلبوا لها طرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان».

والحكمة بمعناها الحقيقي إنما هي القدرة على إدراك حقائق الأشياء، وأسرار الحوادث والوقائع.

والحكمة جعلُ العقلِ يُدرِك عجزه في بلوغ الحقائق. فكم من أسرار لا تدركها العقول لا تُكشَف إلا بالحكمة. وبمنظور الحكمة وحده يمكن معرفة المعنى الحقيقي لتجليات الله ﷻ في هذا الكون العظيم.

ولولا الحكمة لبقيت الأسرار أسرارًا، ولو بقيت الأسرار أسرارًا، لما وصلت الأفئدة إلى حوض العرفان، ولما ظهر أولياء الله الكرام مثل مولانا جلال الدين، وعبد القادر الجيلاني، ويونس أَمْرَه، وشاه نقشبند،

وعزيز محمود هُدائي؛ وأمثالهم من العظام، قدوة المؤمنين في الاستقامة وحسن السلوك.

ولا تفيض ينابيع الحكمة إلا من القلوب التي اجتازت مرحلة التزكية، أي تلك القلوب التي تطهرت معنويًا وسمت إلى الدرجات العليا. لهذا فإن المؤمن يحظى بالقلب السليم بمقدار تطهيره سرائره من الأمور الفانية، خاضعًا للتربية والتزكية التي أمر بها الله ورسوله.

ومقصود العلوم وغايتها الأسمى إنما هي التوغل في الحكمة، وكشف الألغاز التي وضعها الإبداع الإلهي في القرآن والكون والإنسان، وإدراك تجليات العظمة والقدرة الإلهية الموجودة في كل ذرة.

فعلم الطب ينشغل بالقوانين العظيمة التي وضعها الله تعالى في جسد الإنسان، وعلم النبات يهتم بالقواعد الإلهية الموضوعة في النباتات التي تنبت من التراب. وأما الحكمة فليس موضوعها القوانين والقواعد التي تشغل العلوم كافة، بل إدراك صاحبها وواضعها، لأن غاية العلم ليست تكديس العلوم والمعارف في الأذهان، بل إدراك الحكم والأسرار الموجودة في مصدرها



الأساسي بالقلب، وهو ما لا يمكن إلا بتجلي النور الإلهي في ذاك القلب.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]

لهذا يُحيي المتصوفة من أهل الحكمة الأفئدةَ حينما يقدمون أجوبة كافية وافية تحل مشاكل الناس، إما بإرشاداتهم في حياتهم، أو بآثارهم التي تركوها بعد وفاتهم.

ويبيِّن محمد حميد الله، وهو من أبرز علماء الإسلام في القرن الماضي، هذي الحقيقة بقوله:

«لقد كانت العقلانية هي النمط الذي تربيت عليه، وكانت الدراسات والبحوث الشرعية بالنسبة لي تأبى كل شيء لا يمكن تعريفه وإثباته. وكنت أؤدي فروض الإسلام، مثل الصلاة والصيام وغيرها، ليس لأسباب تصوفية، وإنما لأسباب شرعية.

وكنت أقول لنفسي: إن الله تعالى ربي ومولاي، وقد أمرني أن أفعل هذه الأمور، ولهذا يجب عليَّ أن أقوم



بها. فضلًا عن هذا كله، يرتبط الحق والواجب كل منهما بالآخر، والله تعالى قد أمرني بذلك كي أنتفع وأستفيد منه، وواجبي في تلك الحال أن أشكره.

ومنذ أن بدأت العيش في مجتمع غربي في محيط مثل باريس، كنت أشعر بدهشة وحيرة من قبول النصارى للإسلام، ذلك أن ما دفع هؤلاء إلى اعتناق الإسلام ليست آراء علماء الفقه والكلام، بل هم الصوفيون مثل ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي. وكنت في هذا الموضوع شاهد عيان، فعندما كانوا يستفسرون في الموضوعات الإسلامية، فإن الجواب الذي كنت أعطيه والمستنِد إلى الأدلة العقلية ما كان يقنع السائل، ولكن الإيضاح الصوفي كان يثمر بلا تأخر. وبدأت أفقد بالتدريج قوة تأثيري في هذا الموضوع، والآن أنا مؤمن أن الذي سيخدم الإسلام اليوم لا سيما في أوربا وأفريقيا، ليس السيف أو العقل، بل هو القلب- أي التصوف- كما كان الحال في زمن (قزان خان) عقب الدمار والخراب الذي سبَّبه هولاكو.

وبعد رؤيتي الجديدة في هذا الشأن، بدأت في دراسة بعض المؤلفات التي كُتبت في موضوع التصوف، وهذا



ما فتَّح عيون قلبي، وفهمت أن التصوف الذي كان في عهد النبي ﷺ وطريقَ كبار متصوفة الإسلام، لم يكن الانشغال بالكلام فقط أو بأشياء لا معنى لها، بل كان السير في أقصر طريق بين الإنسان وربه سبحانه وتعالى، والبحث عن تنمية الشخصية وتطويرها.

ويبحث الإنسان بطبعه عن أسباب الواجبات التي كُلف بها، لكن الإيضاحات المادية في المجال المعنوي تُبعدنا عن الهدف، أما الإيضاحات المعنوية فهي التي تُقنع الإنسان». [٢٩]

فأكثر الإجوبة إرواءً لظمأ الإنسان تلك الأجوبة التي يفوه بها المتصوفة حينما يخاطبون الأفئدة في إطار الحكم الإلهية، دون إهمالهم المحاكمات والمقايسات العقلية.

لأن العارف بالله من المتصوفة هو ترجمان للعقل الذي خضع لتربية الوحي، وللقلب الذي نهل من

٢٩ محمد عزيز لحبابي، شخصية الإسلام، ترجمة، إسماعيل حقي آقن، ص ١١٤-١١٥، هامش٨، اسطنبول، ١٩٧٢. وهذا الهامش هو نص الرسالة المؤرخة في٢٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٧ والذي كتبه محمد حميد الله إلى المترجم.

نبع المحبة الإلهية. وهو يعلم جيدًا أن العقل يخرج عن صراطه المستقيم، حينما يُحرم من إرشاد القلب السليم، وتتسلط عليه الأمراض النفسانية مثل الغرور والكبر والإسراف، فترى صاحبه قد جنح إلى التفلت والانحراف. لهذا يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لو كان للشيطان عشق بمقدار عقله، لما وصل إلى ما وصل إليه من سوء العاقبة».

والحق أن أول جدال للعقل كان جداله مع رب العالمين الذي خلقه وقدَّره، وكان صاحب هذا العقل إبليس الأحمق الذي دخل في هذا الجدال العقلي لا سواه.

والدنيا مليئة بالشياطين العصاة لأوامر الحق جلَّ علاه، فيجد الغافلون همساتهم ولمزاتهم حصافة رأي وعقلانية. على أن عقلانية الإنسان الحقيقية وبراعته الأصلية هي في استسلامه لخالقه، ونجاته من حيل الشيطان ومكائده.

ويقول مولانا جلال الدين في أهمية ترك التساؤلات والشبهات حول الحقائق التي تتجاوز صلاحية العقل، وأهمية التسليم بالقلب لله ورسوله:



«مع أن العقل يفلح في الأمور الدنيوية، غير أنه لا يكفي للوصول إلى الحقائق والأسرار الإلهية- أي معرفة الله- لماهيته. فلهذه الرحلة السامية نحو الآفاق الرحبة واسطة، ألا وهي القلب، والعشق، والوجد، والاستغراق».

وقد كتب محمد إقبال الحكاية التمثيلية التالية لتعبِّر عن الحقيقة القائلة بأنه لا نجاة من متاهات العقل ومآزقه إلا بالتسليم بعشق للحقائق الإلهية عبر تزكية النفس وتطهير القلب:

سمعت في إحدى الليالي وأنا جالس في مكتبتي عثةً تقول لفراشة:

«مكثت في كتب ابن سينا، ورأيت مؤلفات الفارابي، لكنني لم أفهم منها أبدًا فلسفة هذه الحياة. إنني أفتقر إلى شمس تضيء أيامي...»

وحينما سمعت الفراشة صيحة تيك العثة، أرتها أجنحتها المحروقة وقالت:

«انظري، لقد حرقت أجنحتي من أجل العشق». ثم قالت:



«إن الذي يجعل الحياة أكثر حيوية ونشاطًا إنما هو هذه المحبة وخفقات الفؤاد، والذي يجعل طائر الحياة يرفرف إنما هو العشق!..»

أي إن الفراشة كانت تقول للعثة بلسان حالها وهي تظهر لها أجنحتها المحروقة:

«أنقذي نفسك من الهلاك في أزقة الفلسفة المسدودة! وحلِّقي نحو الوصال ناهلة من بحر المعاني المملوء بالعشق والوجد والفيوضات في كتاب المثنوي!»

لذلك إن كان مقصودنا التنوير العقلي والقلبي، فيجب أن نكون كالفراشة التي تطير حول النور الذي يشع من المنبع الإلهي، فنحلِّق حوله بعشق ومحبة، ولا نتوانى في تقديم الخدمات؛ وهذا هو السبيل الوحيد للنجاة من متاهات العقل وبلوغ الطمأنينة والسعادة. فالإنسان يتخلص من أسر الشهوات النفسانية الفانية وتتسع آفاق معرفته حينما يمزج المنطق السليم بالإلهام، وذلك بالنضج العقلي وإيصال القلب إلى أسمى مقام.



إن المؤمن في كل مرحلة من مراحل حياته يحتاج إلى بصيرة قوية يستمدها من العشق الإلهي، فإن افتقر إليها، فمن العسير عندها أن ينتقل من القشرة إلى الجوهر، ومن الشكل إلى الحقيقة، ومن الصورة إلى السيرة.

وكان من أقوال يمان دادا[٣٠] الأستاذ الذي كان يعلمنا اللغة الفارسية في مدرسة الأئمة والخطباء:

«إنني أومِنُ إيمانًا يقينيًّا مطلقًا بالحقيقة التالية:

لا بد من وجود جناحين نحلق بهما إلى الدرجات العلا وهما: (العشق والعبادة). فالعشق دون عبادة، والعبادة دون عشق، جناح واحد لا ينفع».

ولأننا لا نستطيع الطيران بجناح واحد، فمن الضروري أن يصحب العشق إيماننا وعبادتنا، وأن ندرك

٣٠ اسمه الحقيقي عبد القادر كتشا أوغلو، توفي سنة ١٩٦٢.



عبوديتنا للحق تعالى بالعشق في كل مرحلة، ونؤديها بالعشق أيضًا، وبهذه الحال فقط نبلغ الكمال المنشود.

لذلك استطاع الصحابة الكرام حينما تلقوا أوامر الله ورسوله أن يقولوا: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) متجاوزين الشبهات والأوهام في عقولهم، واستطاعوا أن يقولوا: «فداك أبي وأمي يا رسول الله». وضحوا بأرواحهم في سبيل الله ورسوله بتسليم تام دون أي تردد.

وحينما سأل رسولُ الله الصحابةَ عمن يحمل رسائله إلى الملوك، ما ورد في عقولهم أسئلة نحو:

«أنَّى لي أن أقطع هذي المسافات الطويلة؟ أسيكون لي فرس وزاد؟ كيف أتجاوز الجلادين حتى أقرأ الرسالة أمام الملك؟»

بل تسابقوا في هذه الخدمة طوعًا لا كرهًا، وطلبوها بعشق ومحبة وتسليم تام.

لقد كان أولئك العظام عبادَ الله العارفين الذين انتقلوا نتيجة التربية النبوية من عقول همُّها الأمور الدنيوية، إلى عقول تبحث عن النجاة في الآخرة، ومن عقول تركت المنافع النفسانية والمطامح الدنيوية، إلى عقول عرفت



أهمية الحياة السرمدية، فصارت واسطة خير تسعى للاستعداد لذلك اليوم العظيم.

لذلك كان الصحابة الكرام خير المؤمنين، وحتى لو كانوا يعيشون حياة تعوزها الماديات، إلا أنهم جعلوا عصرهم «عصر السعادة» وبنوا صرح الحضارة، ونشروا الفضائل العظمى والأخلاق المثلى. فالحقيقة تقول: مكابدة المصائب شيء، وعدم الشعور بالسعادة والطمأنينة شيء آخر.

وربَّ امرئ نراه يتعرَّض لمشقات كثيرة، لكنه في ذروة الطمأنينة القلبية. وكم من امرئ لا يشكو أي همٍّ مادي، ولكنه غارق في ضائقات روحانية ومآزق نفسانية، فيمسي قلبه كالحجر أو أشد منه قسوة.

وإن نظرنا إلى مجتمع عصر النبي وخلفائه الراشدين فلن نجد أي صحابي يعاني من مشكلة نفسية، أو بحثنا في الأحاديث الشريفة والروايات فلن نصادف أيًّا منهم يسأل أو يشكو من قلق أو اضطراب نفسي.

ذلك يعني أن الحياة القائمة على الإيمان بعشق والعبادة بخشوع وسيلةٌ لعلاج الروح وذلك بالطمأنينة



التي تمنحها للمؤمنين. والإيمان بالحياة في الآخرة يحقِّر في العيون والأفئدة الهمومَ الدنيوية كلها. وكلما تعمق المؤمن بإيمانه بصاحب القدرة المطلقة، وجد الطمأنينة والسكينة في روحه.

وقد أثنى المولى جَلَّ جَلَالُهُ في كتابه الكريم على المهاجرين والأنصار، وجعلهم أسوة للأمة جمعاء في العبودية، فهم الذين بلغوا ما بلغوه من الإيمان والولاء والتسليم والطاعة التامة.



فليكن العقل قربانًا للمصطفى!

يجب علينا أن نحاسب أنفسنا دائمًا، ونرى مقدار قدرتنا على ترك الوساوس والأهواء وحسابات العقل الدنيوية والنفسانية من أجل رضا الله تعالى. وعلينا أن ننظر إلى ما أنجزناه من هدم للأصنام داخلنا كي نمضي قدمًا في سبيل الحق جلَّ وعلا، كما كان عهد الأنبياء وأممهم الصالحة الصادقة حينما سعوا لإعلاء كلمة التوحيد. ولا بد من أن نقبل ما جاء في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بتسليم ووجد ومحبة، دون الحاجة إلى قياس ما جاء فيها بحدود العقل الضيقة، ثم ننطق بقلوبنا قبل أفواهنا قائلين: «سمعنا وأطعنا». هذه الكلمة التي عبَّر عنها مولانا جلال الدين الرومي بقوله:

«فلتكن عقولنا قربانًا في حضرة رسول الله ﷺ».

وعلينا أن نسلِّم لما جاء به سيد الكون ﷺ تسليمًا يشبه تسليم نجيب فاضل في قوله:



دع العين والعقل والفكر، ولو بلغوا بك عنان السماء
إن قال لك بحيرة فهي كذا، وإن بدت لعينينك صحراء
يا مبشِّري، يا مخلِّصي، يا سيِّدي، يا نبيِّي
كل معيار لا يوافقك أنا رافضه، ولو كان فيه حياتي
فيك الإنسان والمجتمع، وفيك الأساس والبناء
فآمنا بكل ما جئت وعلَّمت، في الضراء وفي والسراء.

ويقول العالم المفكر الإمام الغزَّالي رحمة الله عليه:

«ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات».[٣١]

ويصف نجيب فاضل في أحد مؤلفاته رؤية الإمام الغزالي للعقل والمعرفة قائلًا:

«لمَّا ترك المفكر الإسلامي العظيم المشهور بـ (حجة الإسلام) الأمورَ العلمية والفكرية وأعمال العقل والإدراك، وتوجه تلقاء المعرفة الحقيقية، قال:

---

٣١ المنقذ من الضلال، ص ١٥٨.



(وعلمت أن الغاية هي الالتجاء إلى فيوضات وبركات أعظم الأنبياء، وما سواه خداع ووهم وخيال!.. أما العقل فلا شيء...حدود فقط!)

فأنهى هذا الرأس المهيب الذي لم يرَ الكون نظيره تساؤلاته كلها، والتجأ إلى بركات أعظم الأنبياء، فانطلق هناك في فضاء لا يحده حد».[32]

واعلم أن الإنسان إذا رفع شأن العقل، فبلغ درجة عبوديته، وظن أنه البوصلة الوحيدة التي توصله إلى الحقيقة، فإنه حينئذ أغلق أبواب الإدراك كلها أمام قلبه وروحه. فالعقل الذي يكون ألعوبة بيد النفس والشيطان، يميت القلب، ويشلُّ الروح.



٣٢ جيش الأولياء، ص٢١٣، دار بيوك دوغو للنشر، إسطنبول ١٩٧٦.



من الضروري أن يخضع كل إنسان لتربية معنوية، لذلك فهو محتاج إلى مرآة للحقيقة يرى فيها حاله، كي يكشف مثالبه فيسعى لتجنبها.

تلكم المرآة هي القرآن والسنة في المقام الأول، ثم يأتي الصادقون الذين ساروا على درب رسول الله ﷺ بإخلاص، ثم أهل التقوى والعلماء والعارفون؛ ودون إرشاد هؤلاء وتبليغهم لا يمكن للإنسان أن يجعل عقله سليمًا، ولا أن يزكي من السيئات نفسه، ولا أن يطهر من الأمراض المعنوية قلبه.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين في كتابه «المثنوي»:

«إن الصالح الفطن العارف للطريق، يفتح قناة في بساتين النفس والجسد، ويُجري فيها الماء العذب الزلال، فيطهِّر ما فيها من أدران.



وهل لمجرى الماء الوسخ النجس أن يُطهِّر الأوساخ والنجاسات؟ وأنَّى لعلم الإنسان أن يزيل المشاعر الدنيئة داخله ويخلِّصه منها؟ وكيف لامرئ أن يطهِّر جدوله؟

إن علم الإنسان ينفعه ما دام يأخذ من علم الله تعالى... ومن يرى عيبه، يسير نحو النضج مسرعًا سرعة البرق. وأما المسكين الذي يظن نفسه ناضجًا، فلا يرقى ولا يسير في سبيل الله ذي الجلال لظنه هذا.

يا من يرى نفسه ناضجًا، لا علة في روحك أشد سوءًا من ظنك أنك ناضج!..»

فللخروج من مآزق العقل لا بد من الخضوع لتربية القرآن والسنة، والالتزام بما جاء فيهما في إطار التوازن بين العقل والقلب.

والنتيجة التي يصل إليها العقل بتدبر القرآن الكريم، الذي هو بمثابة المرآة للإنسان والكون وما فيهما من حقائق، ليست إلا كالمعدن الخام الذي يُستَخرج من التراب، والذي يصقل هذا المعدن ويجعله ذا نفع هو ذاك القلب المليء بالإيمان.

والقلب مركز الأحاسيس كلها. فكيف يدرك المرء الحقيقة إدراكًا تامًّا؟ يدركها عندما يجمع الأدلة التي



يقدمها العقل مع قدرات وطاقات ذلك القلب الذي ارتقى إلى درجات سامية، قدراتٌ نعبِّر عنها بـ «الحدس والإلهام والسنحات». وهذه العملية تشبه جمع أجزاء إناء مكسور، وإرجاعه إلى حالته الأولى.

والحق أن القرآن الكريم لجَّةٌ واسعةٌ يسبر القلبُ أغوارَه بمقدار نضجه. وكلنا يعلم أن الذي لا يعرف السباحة ليس له إلا المياه الضحلة، أما الغواص الماهر فيغوص حتى أعمق نقطة في البحر، ويرى ما لا يراه مَن في الشاطئ من عجائب وغرائب وعوالم لم يعهدها. كذا الفرق بين من لا تقوى عنده، والتقي الذي سار في طريق الحق بالقلب، فرأى تجليات حِكَم القرآن الكثيرة وانتفع منها. وكما أن المرء حينما ينظر إلى بئر عميقة يشعر بالصداع، كذلك فإن القلب الذي يتوغل في حقائق القرآن تتفتح أمامه الآفاق، فيجعل صاحبه كالسائر في أودية الحيرة والدهشة، محرضًا إياه على نيل نصيب من معرفة الله سبحانه وتعالى.

فالوصول إلى الحق والخير يقتضي تربية العقل بالوحي، ووضعَ القلب الناضج إيمانيًا محل العقل حينما تنفد طاقته، فيتلافى القلبُ آنذاك عجزَ العقل وقصوره



بتسليمه المطلق. ولولا الحياة القلبية والمشاعر المعنوية، لكان من المحال بلوغ عالم الحقائق بالعقل وحده.

ويشير نجيب فاضل إلى وظائف العقل والقلب في إدراك الحقائق بقوله:

«العقل كالعامل يحمل أدوات القياس على ظهره، وهو يتَّبع الإحساس، فالإحساس يأتي قبل التفكير، وحينها يشرع العقل بالقياس. إننا ندرك كل شيء إدراكًا آنيًّا بالحدس لا بالعقل، وبالقلب؛ أي بالروح... والعقل يسير وراء الروح، ويقيس ما أدركته الروح بمقاييس الكمية وضوابط خاصة به».[٣٣]

ولقد أدرك بعض الفلاسفة أن العقل وحده غير كاف، ففتشوا عن وسائط أخرى في بحثهم عن الحقيقة. وظهر كثير من الفلاسفة يسعون لحل المشاكل تارة بالحس، وتارة بالحدس، وتارة بدخولهم في مجالات بعيدة عن العقلانية.

ومن هؤلاء الفلاسفة الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (١٨٥٩-١٩٤١) الذي اتَّخذ الحدس

---

٣٣ التفكير الغربي والتصوف الإسلامي، ص٨٥-٨٦.



(السنحات) أو البديهة وسيلة له في بلوغ الحقيقة؛ فما كان من أولئك الفلاسفة الذين جعلوا العقل أساسًا لهم.

ولأن الربيع لا يحل بتفتُّح بضع زهرات ولا الشتاء ببضع قطرات، فلا فائدة ولا نفع من انتظار أجوبة من الفلسفة تُشبِع شغف الإنسان في بحثه عن الحقيقة.

ولم يستطع برغسون إكمال اكتشافه هذا لأنه لم يكن مطَّلعًا على الثقافة الإسلامية، ولم يكن الإنجيل المحرَّف الذي يؤمن به وسيلةً مثل القرآن الكريم الذي حفظه الله تعالى.

وكما أن من يبحث عن الحقيقة متخذًا الكتاب العزيز وراءه ظهريًّا، ومعتمدًا على العقل وحده، يجرُّ نفسه إلى ضلالات كثيرة، كذلك هو حال من يصل إلى بعض الكشوفات والإلهامات نتيجة الرياضات والمجاهدات التي تنأى عن إرشاد الوحي الإلهي، إذ هو معرَّض للخطر المحدق ذاته لا محالة. لأنه لا يمكن التفريق بين الإلهامات والكشوفات- الرحمانية منها والشيطانية- دون إرشاد قائم على ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه.

ولقد حذَّرنا الإمام الرباني من ذلكم الأمر عندما قال:



«إن طريق الرياضة والمجاهدة كطريق النظر والاستدلال إنما يُعتبر ويُعتمد عليه إذا كان مقرونًا بتصديق الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، الذين يبلغون الأمانة من قبل الحق جلَّ وعلا، ومؤيَّدون بتأييده سبحانه، ومعاملتهم محفوظة من كيد اللعين ومَكْرِه بنزول الملائكة المعصومين،

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]»[٣٤]



٣٤ مكتوبات، جـ٣، مكتوب رقم ٢٣.



إننا نشاهد في هذه الأيام مع الأسف بعضًا ممن درسوا الشريعة وقد استهوتهم فكرة استصغار العلوم التي تستند إلى القرآن والسنة، وجعل الفلسفة أسمى العلوم موقعًا وأرفعها درجة مع كل الحقائق التي ذكرناها.

وهؤلاء وأمثالهم يرون كل عالِم دِين ناقصًا ما لم يطَّلع على الفلسفة، لا بل يتجاوزون ذلك فينعتونه بالجهل.

ويسعون جاهدين لرفع الفلسفة إلى الدرجات السامية مطلقين عليها اسم «محكمة العلوم العليا» وكل ذلك لطمس مشاعر الدونية.

ويرمون القرآن- عمدًا أو جهلًا- بافتراءات واتهامات باطلة تمامًا، قائلين إنه يجمِّد تفكير العقل.

وقد خاطب مولانا جلال الدين قبل عصور مضت كل فرد من هؤلاء الجاهلين الغافلين على اختلاف مقاماتهم ودرجات علمهم، فقال:



«إن كان أنفك لا يستطيع الشم، فلا تلومنَّ الوردة».

أي إن كنت لا تتفكر في الحقائق والحكم الموجودة في القرآن، فلا تقع في غفلة اتهامه، وابحث عن الخطأ في نفسك!

لكن ينبغي أن نعلم حقيقة أنه من اليسير توجيه الجاهل إلى الصراط المستقيم، ولكن العسير أشد العسر توجيهُ الجاهل الذي يرى نفسه عالمًا ويتبع هواه. وهذه حقيقة أشار إليها بديع الزمان النورسي في قوله:

«كانت الضلالة في الماضية ناتجة عن الجهل، يسيرٌ زوالها. أما في زماننا هذا، فالضلالة- أي التعرض للقرآن والإسلام والإيمان- ناتجة عن العلوم والفلسفة، ويصعب إزالتها. هذا القسم الثاني كانت نسبته في الماضي واحدًا بالألف، وكان واحد بالألف من هذا القسم يجد الطريق الصحيح بالإرشاد، لأن أمثال هؤلاء ما كانوا يعرفون، ويظنون أنفسهم عارفين».[35]

وقد ضرب الله ﷻ لنا مثلًا علماء بني إسرائيل حينما وصفهم في قوله:

---

٣٥ الكلمات، ص٧٥٢.



﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]

إذ أصابهم الغرور بعلمهم، فانجرُّوا إلى الجهل؛ لا الجهل بالعلوم، ولكن الجهل بالأخلاق والطباع الحميدة.

ومن المسائل التي تلفت انتباهنا مسألة «التاريخية» التي هي مظهر من مظاهر حيرة الأكاديمين في بعض كليات الشريعة، حيرة أساسها ترجيح العقل على النقل تأثرًا بالغرب.

وتسعى هذه الجماعة إلى فتح باب النقاش والجدال، منكرةً صفة «الشمولية» في الآيات الكريمة، وتمهد الطريق لزرع الشك في المسائل الاعتقادية، إذ تدَّعي أن الأحكام الإلهية في بعض الآيات لا تنطبق إلا في الزمان الذي نزلت فيه، أي إنها منحصرة في المسلمين العرب الذي عاشوا في عصر الرسول ﷺ.

لا بل تجاوزت هذه الجماعة كل حد، فجعلوا يعدِّلون أحكام الدين الثابتة، وهو أمر لم يعطه ربنا سبحانه وتعالى حتى لنبيه الكريم.



ولا ريب أن الاجتهاد في الإسلام أمر وارد، لكنه يجب أن يستند إلى أدلة عقلية وفرعية مأخوذة من القرآن والسنة، ويُلجَأ إليه من أجل قضاء حاجات الناس لدى تغير الظروف بمرور الوقت. ولا بد من أن يقتصر على العلماء الذين بلغوا درجته فقط. ولا اجتهادَ في الأمور التي ورد فيها نص قطعي مثل مسألة الميراث.

لكن هذه الجماعة رأت إمكانية الجدل في كل مسألة، ولا تذكِّرنا جرأتها النابعة من الجهل إلا بتحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل.

إن الأوامر والنواهي في الإسلام جاءت متوافقة مع طبيعة الإنسان التي تبقى ثابتة لا تتغير، وتقدم أحكام هذا الدين أجوبةً لحاجات الإنسان في الأزمنة كلها بدءًا من عصر السعادة (عصر الرسول والخلفاء الراشدين) حتى قيام الساعة، ولا تقتصر على مكان واحد بل تشمل كل مكان قد يصل إليه الإنسان.

لهذا لا تبلى أحكام القرآن البتة، بل تحافظ على كمالها في تلبية حاجات البشر على أفضل صورة. لذلك فإن القول «بتاريخية» قسم من أحكام القرآن –أي



انحصار الأحكام في زمان ومكان معيَّنَين- ضلالة توقع المرء في الكفر.

وقد وضع الله تعالى قوانين عملية وتطبيقية على حسب كل زمان، وذلك بإرساله الأنبياء والرسل دائمًا لدى تغير بنية المجتمعات، لكن الأحكام الإيمانية والاعتقادية بقيت هي نفسها لا تتغير البتة. وكان رسول الله ﷺ نبي آخر الزمان وخاتم الرسل، لذا فإن الأحكام التي جاء بها باقية حتى قيام الساعة تلبي حاجات البشرية كلها.

وكل تفكير عكس ذلك ضلال مبين يماثل نسب العجز إلى ربنا عز وجل الذي خلق الناس، فهو سبحانه أدرى بهم من أنفسهم، وهو الذي يعلم ما كان وما سيكون بعلمه المطلق. وكل محاكمة عقلية تخالف ما ذُكِر حماقةٌ تشبه دخول إبليس في جدال مع رب العالمين الذي خلقه.

وأي ضلالة أكبر وأي حماقة أشنع من الجدال في الأحكام التي وضعها الله تعالى باستعمال العقل الذي وهبه للإنسان. وهنا لا نجد بدًّا من تذكير كل من وضع نفسه في هذا الموضع بقوله تعالى:



﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [البقرة: ٨٥]

وبقول رسول الله ﷺ:

«**كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله**».[٣٦]

ولا ريب أن الفتن التي ظهرت في أمور الدين هذه الأيام لَأوضحُ دليل على مقدار الجهل العظيم المنتشر بين الناس. فأرباب العقول الذين وضعوا هذه الفتن هم الأشقياء بصورة العلماء، نالوا علومهم بقراءتهم السطحية الناقصة دون أن تكون لهم قاعدة دينية متينة

٣٦ الترمذي، فضائل القرآن، ١٤/ ٢٩٠٦؛ الدارمي، فضائل القرآن، ١.



سالمة، ولم يتفكروا في القرآن الكريم يومًا ولا تدبروه كما يجب، ولا قرؤوا كتب التفسير والحديث بفهم. وأما هاتيكم الأفكار التي جاؤوا بها فهي ليست إلا تعبيرًا عن الحيرة النفسانية التي شعروا بها أمام الأفكار الباطلة.

فلو كانت لديهم القدرة على التفكر في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة كما ينبغي، لما كان الحال كما يظنون. ولقد دعانا الله تعالى في ١٣٧ موضعًا في القرآن إلى التفكر في الحكم والحقائق الإلهية، وبيَّن أنه لا طاقة للعقل المحروم من الوحي في بلوغ آفاق التفكر التي يفتحها القرآن للإنسان، حتى لو مكث متفكرًا متأملًا وحده آلاف السنين.

ويجب على العالِم الإسلامي الذي يريد أن يكون هاديًا للناس أن يكون عميق التفكر حسن التدبر، عالمًا بالمحاكمات العقلية وأصول القياس، ومطلعًا على المنطق، والرياضيات، والعلوم السياسية، والأخلاق، وعلم الاجتماع، وعلم النفس. وأما وظيفته، فهي أن يَعْلَم ماهية التيارات الفكرية والفلسفية، ويربي نفسه كي يصل إلى درجة يقدم فيها أجوبة نابعة من الإسلام متحديًا بها هذه التيارات عند اللزوم. ولا ضير في



الدخول في جدال مع أتباع هذه التيارات بعد معرفة أفكارهم الباطلة، والوصول إلى إيمان راسخ يستند إلى القرآن والسنة.

فالمسلم العالم بالحقيقة كلما رأى ضعف صرح الأفكار والمذاهب الدنيوية وهشاشتها، حَسَنٌ إدراكه لقيمة الإسلام وعظمته، وصار ذلك وسيلة لتعزيز إيمانه، فالحقيقة يدركها المرء إدراكًا أجلَّ حينما يرى نقيضها.

يقول نجيب فاضل:

«أحسن إيمان ما وصفه محي الدين بن عربي، الإيمان الذي يأتي بعد رؤية منشأ الكفر. ومعرفة منشأ الكفر دَين على كل مؤمن (كامل)... فلا يكفي قولك (أنا عدو للشيوعية!)... بل لا بد من الفهم...»[٣٧]

والغوَّاص الماهر يغوص في أعمق البحار دون خوف أو وجل، فيرى العجائب والغرائب. والمؤمن المستقيم كالفرجار لا جُنَاح عليه إن اطَّلع على ثقافات الأمم بإحدى ذراعيه، ما دامت الذراع الأخرى ثابتة في الشريعة. لكن الخوف كل الخوف أن يغوص الجهول

٣٧ التفكير الغربي والتصوف الإسلامي، ص٦٩.



بالسباحة في بحر عميق؛ أي أن يظن ذلك الجاهل بالكتاب والسنة الأفكارَ الباطلة المزخرفة بزخارف المنطق حقائقَ مطلقة، أو أن يُعجَب بالباطل ويبدي دهشته أمامه.

ويحذِّرنا الإمام الغزالي فيقول في هذا الأمر:

«والعارف العاقل يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول، فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من تضاعيف كلام أهل الضلال، عالماً بأن معدن الذهب الرغام.

ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والبهرج. مهما كان واثقاً ببصيرته...

ولعمري! لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة وكمال العقل وتمام الآلة في تمييز الحق عن الباطل والهدى عن الضلال وجب حسم الباب في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ما أمكن».[٣٨]

٣٨ المنقذ من الضلال، ص١٥٣.



نفهم من كلام الإمام أن من أعظم أخطار الاشتغال بالفلسفة الانجرارُ إلى مغالطات عقائدية نتيجة عدم التفريق بين ما صحَّ في الأفكار الفلسفية وما خالطها من ضلال. فالمستشرقون في أيامنا هذه يسعون أثناء بحثهم في الإسلام وقضاياه إلى نشر أفكارهم الباطلة، وذلك بإقحام فكرة خاطئة بين عشر صحيحات، فبهذا الأسلوب يتلاعبون بعقائد أولئك المحرومين من التقوى أو الذين لديهم قدر ضئيل من العلوم الإسلامية.

ولا يمكن البتة غض البصر عن الأفكار الباطلة التي تأتي من المستشرقين أو الفلاسفة حتى لو كانت قليلة وبسيطة. فحينما تمسي تيك الأفكار سببًا للشك بالأحكام الإلهية المتعلقة بالاعتقاد، تكون كافية لإيقاع العبد في الهاوية وزجِّه في سراديب الضلال.

لأن الإيمان لا يكون إيمانًا جزئيًا، بل إيمانًا كاملًا. فإنكار القرآن كله وإنكار حكم من أحكامه سيَّان، فكلاهما يُفضيان إلى العاقبة نفسها، ألا وهي الحرمان من الإيمان.

فمن الضرر أن يشتغل المسلمون بالأفكار الباطلة، ما خلا العلماء المؤهلين الذين بلغوا درجة التفريق بين الحق والباطل تفريقًا نابعًا من علم ودراية.



وليس من الغريب أن يشتغل بالفلسفة المفكرون المسلمون الذين تعلموا كتاب الله وسنة نبيه كما ينبغي، للوقوف في وجه أعداء الإسلام، ولحماية العامة من الأفكار والآراء الباطلة الصادرة عن هذا العلم، لا بل إن اشتغالهم بالفلسفة واجب عليهم.

ومن الضروري إعداد جيل من علماء المسلمين قادر على طرح آرائه في هذا العلم، كي لا يستأثر الفلاسفة الملحدون والماديون بهذا المجال.

ولقد تبحَّر الإمام الغزالي في ذاك العلم مدافعًا عن إيمان أهل السنة، ومجادلًا الفلاسفة الذين حاولوا تعكير صفو الإيمان الحقيقي لدى الناس. وتعلَّمَ أصول الفلسفة وأسسها وتعمق فيها مانعًا بذلك اتهام الفلاسفة إياه بأن «الإنسان عدو ما يجهله». فألَّف كتابه «مقاصد الفلاسفة» شرح فيه المسائل الفلسفية كلها آنذاك شرحًا لا يخلو من وضوح، ثم ألَّف كتابه «تهافت الفلاسفة» ناقدًا أفكارهم كلها، ووضَّح فيه الفرق بين اعتقاد أهل السنة وأفكار أرسطو وأتباعه في عشرين مسألة، ثلاث منها توجب الكفر.



ومن الأمور التي ينبغي الحذر منها لدى الاشتغال بالفلسفة ذلك المرض الذي جاء نتيجة الطاعة العمياء للغرب وتقليدهم، المرضُ الذي يتمثل في السعي لجعل الفلسفة قاعدة للتفكير الإسلامي، أي جعل العقل- عمدًا أو جهلًا- الأساسَ في التفكير، والتقليل من شأن النقل.

على أن الإسلام ليس يحتاج إلى نظم بشرية، ولا تيارات معاصرة، ولا تكامل مع غيره من الأديان. ومن يرى هذه الحاجة، يُنقِص من عظمة الإسلام وهيبته، فهو الدِّين الحق الوحيد على وجه الأرض، وفيه أكمل رؤية للحياة، وهو منبع الطمأنينة ومصدر السعادة لكل عصر ومجتمع حينما يُطبَّق تطبيقًا صحيحًا.

فقمة الجهل وأشنع الحماقة أن يدَّعي المرء أن البلبل ذا الصوت الرنان العذب يغرِّد ويطلق نغماته الرائعة متشبِّهًا بالغراب ذو الصوت المزعج.

ومن الأمور الملفتة للنظر ما قاله البروفسور أحمد آق كوندوز رئيس جامعة روتردام الإسلامية في كتابه «الحضارة الإسلامية والبحث عن نظام عالمي جديد» حول حقيقة أن الإسلام رؤية للحياة توصل البشرية إلى السعادة في هذه الأيام:



«لا بديل عن الإسلام نظامًا للحضارة يضمن سعادة البشرية في هذه الأيام التي أعلنت فيها النظم البشرية– وعلى رأسها الشيوعية والرأسمالية وما نشأ عنهما من نظم لا شرعية– إفلاسها وإفلاس منظِّريها.

وأوضح مثال ما نتج عن الاجتماع السري لقساوسة روما. ففي ذلك الاجتماع اعترف القساوسة بأن إيطاليا كانت أشد الدول تأثرًا ببلاء الشيوعية في أوربا الغربية، وكان الشباب العائد إليها من دول الشيوعية ينكرون أسس النصرانية المحرَّفة، ويبحثون عن الدين الحق الفطري للبشرية جمعاء، وأقرَّ القساوسة بأن ٦٠ ٪ من هؤلاء قد أسلموا بعد بحثهم الجاد عن الدين الصحيح.

ولا نجد بدًّا هنا من قولنا إننا– المسلمين– لو استطعنا أن نوضِّح الإسلام الحقيقي، ونمثل الإسلام بأقوالنا وأفعالنا خير تمثيل، لزادت هذه النسبة.

لذلك يسعى الغرب الخائف من هذا الأمر لتشويه صورة الإسلام أمام أبنائه، كي يُوقِف هذا التوجه نحوه.

ولنعلم أن الأمة لا تحيا دون دين، وأن المجتمعات النصرانية– وفي مقدمتها المجتمع الروسي– التي تعصف



بها رياح الشيوعية، وتتساقط عقائدها كتساقط أوراق الخريف، لن تعود إلى النصرانية البتة. ولنضع في أذهاننا أنه إن أدَّينا وظيفتنا على أكمل وجه، فسيكون ملجَؤهم في نهاية المطاف الإسلامُ».

ولقد ذكرنا فيما سبق أن الإنسان الغربي تحيط به أشواك التعصب وكره الإسلام، أشواك تمتد جذورها في عصور متعاقبات طويلات، لذلك فهو يسعى لإنارة دربه بتيك الشمعة الخافتة بين يديه بعد أن لم يستطع الاستفادة من نور شمس الإسلام كما ينبغي.

وبما أننا نتحدث في هذا الموضوع، فلنا أن نذكر ما يلي:

إن أعداء الإسلام في الغرب كانوا وما زالوا يسعون لقطع طريق أبنائهم نحو الإسلام، لذلك بدؤوا منذ عصور مضت بتشويه سمعة هذا الدين العظيم، فأطلقوا حملة قالوا فيها إن «الإسلام دين عشيرة، والمسلمون متوحشون همجيون». وبقي هذا الحال حتى يومنا، وبقيت حملات الافتراء والكذب، ولكن بصورة أخرى واتهام آخر، فاليوم شعار حملاتهم: «الإسلام



دين إرهاب وحروب». ودليلهم في هذي الادعاءات ما يرونه من آلام وأوجاع في الدول الإسلامية التي تفتك بها براثن الحروب والفوضى والفقر والتخلف.

على أن الحقيقة هي أن بذور الفتنة التي زرعوها لإنجاز خططهم الاستعمارية لعبت دورًا مهمًا في الحال التي بلَغها العالم الإسلامي، وهم يسعون لإخفاء هذه الحقيقة عن أعين الناس. لكن عصر التواصل الاجتماعي الذي نعيش فيه اليوم وسهولة نقل المعلومات جعل من العسير عليهم إخفاء الحقائق، فترى الناس الذين يعلمونها يزداد عددهم مع كل فجر يطلع علينا.

والإنسان العاقل النائي عن التعصب والقادر على رؤية الإسلام بعين الإنصاف لا يمكن أبدًا أن يقبل تهمة الإرهاب والتوحش المنسوبة إلى هذا الدين القيِّم. فقد كانت حياة نبينا الكريم المبعوث رحمة للعالمين منذ بعثته حياة قائمة على «مكافحة الإرهاب»، سعى فيها لإزالة الأفعال الوحشية التي ارتُكِبت بحق الإنسان والحيوان والطبيعة. وقد كان سيدنا ﷺ خاتمَ الأنبياء والرسل وسيد الكون الذي وضع الحق والحقوق ونشر العدل بين الناس أجمعين.



وكان الفيلسوف لافاييت الذي وضع الأسس الفكرية للثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ هو من قال قبل «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»:

«يا محمد، لم يبلغ أحدٌ الدرجة التي وصلت إليها في نشرك العدل!»

وكان قوله ذاك بعد أن درس الأنظمة البشرية التي تتحدث عن الحقوق، ورأى سمو الحقوق في الإسلام.

ومع قدومه ﷺ بزغ فجر الحقيقة والسعادة على عصر الجاهلية التي كانت فيها البشرية قابعة في ظلام الكفر والفجور، ولا تعرف شيئًا عن الإنسانية والفضيلة.

وكانت البوادي بركة مروِّعة من الدماء، يئد فيها الأب ابنته، ويتقاتل على رمالها أبناء الأعمام، فصارت بساتينَ وحدائق قامت عليها حضارة عظيمة بفضل تبليغ نبي الرحمة وإرشاده.

وجفَّت مستنقعات الظلم التي كانت مليئة بالعداوة والبغضاء، وتُستباح فيها الدماء، لتتفتَّح آفاق المحبة والسعادة على أساس الأخوة في الدين. وسما الصرح الفريد **لحضارة الفضائل** التي تنظر إليها البشرية بغبطة حتى يومنا هذا.



لقد كان الإسلام دينًا عظيمًا ونورًا يهدي، فما من مجتمع تبعه كما ينبغي- أيًا كان الزمان والمكان- إلا وارتقى إلى ذروة الإنسانية والفضيلة والحضارة. ولم تجد البشرية- ولن تجد- بعد الإسلام نظامَ حياة حوَّل لها الحياة الدنيا إلى جنة تتنعم فيها بالسعادة والطمأنينة.

لذلك فإن أول مهمة ملقاة على كاهلنا نحن- المسلمين- إدراكُ عظمة هذا الدين الذي لا مثيل له في أيامنا هذه إدراكًا يليق به، والعض عليه بالنواجذ، وتمثيله بأحوالنا ومعاملاتنا خير تمثيل.

وما أشد العجب وما أعظم الحيرة حينما نرى بعضًا ممن يُنسبون إلى دين الإسلام الحق يشعرون بالإعجاب بالطرق الباطلة، في الوقت الذي لم تجد البشرية في الأديان الموضوعة والمحرفة، ولا في الفلسفات العقلية، ما تبحث عنه، فضاق صدرها، وما عاد يُشبِعها شيء.

وأود هنا أن أحدثكم عن شيء من ذكرياتي:

قبل أعوام مضت قدم إلى إسطنبول الفيلسوف والسياسي الفرنسي المشهور روجيه غارودي الذي كان المدير السابق لمكتب الحزب الشيوعي الفرنسي،



وكانت زيارته هذه بعد أن بحث في الإسلام وأعلن إسلامه. وكنت من الحاضرين في المحاضرة التي ألقاها آنذاك في قصر يلدز، فقال في كلمته:

«إن لكم دينًا صحيحًا، وفكرًا سليمًا. وأما الغرب فمريض من كل ناحية. لكن العجب العجاب في الأمر، أنكم تقلِّدون المريض، وليس عندكم أي علم عن سلامتكم!..»

ومن المظاهر التي تدل على العقلانية الناقصة والمنطق الأعوج ما يفعله بعض من أرباب الكليات الشرعية، التي يُفترضُ أن تقدم علومًا إسلامية نافعة، حينما ينتقدون الإسلام مستندين إلى تيارات فلسفية فكرية، في الوقت الذي يجب عليهم أن يحللوا هذي التيارات من وجهة نظر إسلامية.

ونرى كثيرًا من الطلبة يُساقُون إلى تعلم الأفكار الباطلة مع أنهم لم يتعمقوا في العلوم الدينية ولم يقتبسوا من القرآن والسنة اقتباسًا يكفيهم، وهذا أمر خطير قد يؤدي إلى إضلال عقولهم الغضة فتزل أقدامهم. إذ ليس كل طالب شريعة كالإمام الغزَّالي حتى يرى عيوب تلك



الأفكار الباطلة فيزيد إيمانه دون أن يتخبط خبط عشواء أمامها.

والحق أنه من العسير أن نجد مسلمًا زاد تقاه وورعه لدراسته الفلسفة، اللهم إلا القليل. ولا عجب إن رأينا كثيرًا من المسلمين ممن ليس عندهم علم ولا عرفان يكفيهم، قد قرؤوا الفلسفة فضَعُفَ إيمانهم.

لذا إن كان لا بد من تدريس الفلسفة، فيجب تعليم الطلبة القرآن والسنة تعليمًا كافيًا، ثم إيضاح نقص علم الفلسفة وعيوبه، لا الاقتصار على ذكر حسناته. وينبغي أثناء تعليم الأفكار الفلسفية عرض الطريقة التي يردُّ الإسلامُ بها على تلك الأفكار بأدلة علمية مقنِعة، أي لا مناص من تعليم النظريات التي ترد على النظريات التي تخالف الحقائق الإسلامية، لا سيما تلك الفلسفية الإلحادية والمادية. وبهذه الطريقة نوضِّح أن الإسلام رؤية للحياة لا مثيل لها تقدِّم أجوبة مقنعة تحل معضلات الإنسان الفلسفية.

وإن رجعنا إلى التاريخ الإسلامي وتأملنا صفحاته، فسنجد أن الإنسان الذي أرادت المدارس النظامية



ومدارس إزنيك وفاتح أن تربيَّه وتنشئه، هو «العالِم» صاحب العلم العميق القادر على هداية المجتمع في كل مضمار. أي إن العالِم الإسلامي يستطيع أن يتعلم الحقوق والطب والفلسفة على حسب قدرته واستعداده، ولكن بعد أن يتوغل في العلوم الإسلامية مثل التفسير، والحديث، والعقائد، والفقه، والتصوف.

ومن المعلوم أنه في أيامنا هذه ابتعد الناس عن هدف الوصول إلى هذا المستوى من العلم، فاكتفوا بالتعمق في فرع محدد من فروع المعرفة لا أكثر ولا أقل. وكم من طالب متخرج في بعض الكليات الشرعية نلقاه وليس لديه العلم الضروري بالقرآن والسنة، أي ما وصل إلى علم إسلامي كافٍ.

ولا يخفى على أحد مثلًا صغر مادة **السيرة**، التي هي تفسير حي للقرآن والسنة، في مناهج الكليات الشرعية، ولا تتجاوز تلك المادة الدراسية- مع الأسف- حدودَ كونها سردًا تاريخيًا للأحداث، على أن السيرة النبوية من المواد الدراسية المهمة التي ينبغي تدريسها بكل ما تشمل من تحليل لحياة النبي ﷺ.[٣٩]

٣٩ المقصود هنا مادة السيرة النبوية في كليات الشريعة في تركيا. [المترجم]



والله سبحانه وتعالى يأمرنا بالالتجاء إليه، ففي كل ركعة في الصلاة نقرأ قوله:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]

ويبيِّن لنا المقصود من هذا الصراط بقوله واصفًا النبي الكريم ﷺ:

﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ١-٤]

فكل مؤمن يبغي الوصول إلى الصراط المستقيم الذي يرضى عنه ربنا سبحانه، لا بد من أن يقتدي بالنبي الكريم، ويسير على منهاجه النبوي المنير.

وللمسلمين مصدران أساسيان في دينهم: القرآن الكريم، وحياة النبي ﷺ الذي يعد «أسوة حسنة» لهم أجمعين. ولقد بلَّغنا ربنا جلَّ وعلا أوامره بصورة عامة في القرآن الكريم، لكن تفصيلات هذه الأوامر وكيفية تطبيقها تجلَّت في حياة رسول الله، لهذا قال سبحانه وتعالى:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ...﴾ [النساء: ٨٠]

ويقول في آية أخرى مثنيًا على رسوله الكريم:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]



لذلك ينبغي لكل من يبحث عن أكمل الأخلاق وأسماها، أن يسعى لفهم أخلاق رسول الله ﷺ المثلى. فكل المؤلفات الإسلامية التي كُتبت مذ حوالي ١٤٠٠ سنة مالئةً المكتبات تسعى لتوضيح معاني كتاب واحد، ألا وهو القرآن الكريم، وإنسان واحد هو سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ، المثالُ الحي لأخلاق القرآن، والرحمةُ المهداة للبشرية جمعاء.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]

فالمؤمن الذي يودُّ أن يدرك معاني القرآن كما ينبغي، عليه أن يتخلَّق بأخلاق النبي، فحياته ﷺ النبوية التي استمرت ٢٣ عامًا تفسيرٌ حيٌّ للقرآن الكريم. ولا يمكن فهم أسرار القرآن وحكمه إلا بالأخذ من روحانيته ﷺ.

وأعظم خطوة يخطوها العبد أثناء عبوديته لله تعالى هي حينما يفهم حياة رسوله ﷺ. فدُون معرفة النبي والسير على خطاه والتأسي بخلقه، لا الإيمان يكتمل، ولا إدراك القرآن يتم، ولا العبودية تتحقق.



وإذا لم نتعلم حياة رسول الله ﷺ كما ينبغي، فسنعجز عن فهم العلوم الإسلامية فهمًا صحيحًا: التفسير، والحديث، والفقه، والأخلاق. لذلك فإن «السيرة النبوية» أكثرُ المواد أهمية وضرورة، والتي ينبغي التركيز عليها من أجل فهم الإسلام فهمًا صحيحًا.

ويذكر ربنا ﷻ في كثير من آيات كتابه العزيز حياةَ الأنبياء مبيِّنًا لنا مناقبهم وسجاياهم، ويعرض لنا الحلول للمشاكل والصعوبات التي تعرضوا لها في مجتمعاتهم، فيأمرنا أن نتفكر في حياتهم ونتدبر، ونجعلهم قدوة لنا في هذه الدنيا. لذلك من الضروري أن نضع في كليات الشريعة هذه الأيام مادة ندرِّس فيها قصص الأنبياء إلى جانب مادة تاريخ الأديان.[٤٠]

ولا بد من أن يأخذ طلبة الشريعة تلكم العلوم الأساسية قبل أي شيء، ثم يسعوا للإفادة من العلوم الأخرى على حسب طاقاتهم واستعداداتهم.

فمن يريد تحصيل العلوم الإسلامية، ينبغي له أولًا أن يدعم الأسس الإيمانية بآفاق التفكر التي يفتحها القرآن

٤٠ المقصود هنا إضافة مادة قصص الأنبياء في كليات الشريعة في تركيا. [المترجم]



والسنة. فالإيمان يضعف عندما يكون بعيدًا عن التفكر في القرآن، وغير متجذِّر في القلوب تجذرًا كافيًا، فيمسي حينما تهب العاصفة الهوجاء هباءً منبثًا. وهو أمر يعد من أصعب المشاكل وأجهد المعضلات، لأنه يحمل أصحاب الأفكار الباطلة المزينة بمبادئ العقل والمنطق إلى الهاوية، ويردُّهم أسفل سافلين.

اللهم اجعلنا ممن يدركون قيمة كتابك وسنة نبيك كما ينبغي، واجعل عقولنا وقلوبنا تتعمق في التفكر في هذين المنبعَين، ولا تحرمنا من معرفة حكمك يا أرحم الراحمين.

وأكرمنا بقلوب رقيقة صاحية تقشعر من عظمتك وقدرتك المتجلية في القرآن والكون والإنسان.

واجعلنا ممن يمتثلون لأمرك في قولك ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[العلق: ١] **وهب لنا من رحمتك عقلًا وقلبًا سليمَين ينتقلان من السبب إلى المسبب، ومن الأثر إلى المؤثِّر، ومن الإبداع إلى المبدع.**

آمين!..



فهرس



